

العربية ورهانها العولمي لسانيا

عبد الجليل مرتاض - ج. تلمسان

1- عولمة اللغة واللسان؟

1-1 لغتنا :

لا نريد هنا أن نحيل على التعريفات القديمة لدى فلاسفة ولغويين بشأن لغتنا حتى لا نجد أنفسنا وقد اتخذنا مساراً لا نعرف له منطلقاً ولا منتهى، ولكن لا أحد يمنع الآخر من إثارة إشكالات حول لغتنا، كلما أيقنّا بأننا لا نلامس النظريات السطحية، ولا الرؤى الميثولوجية السهلة تناولها، الصَّعْبَ قَبُولُهَا، حتى لو كنا نشعر أحياناً باستجلائها، وأنها لا تعدم حقائق أولية ما، أدت بعجز الإنسان وقصوره وحيرته إلى إقصائها أو تصنيفها في عالم المعرفة هروباً من الهزيمة، لأنّ اللاحقية في ذاتها حقيقة.

إنّ الأبحاث عن أصول اللغة لم تُعدّ مُجدية، ومع ذلك ظلت تشكّل موضوعاً قديماً جداً في الدراسات والافتراضات المتتالية دورياً، وبحثها الفلاسفة مثلما تقصّها اللغويون، وأثارها الفقهاء، والتفت إليها علماء النفس والاجتماع والأجناس، وبقي الجدل حولها إلى غاية القرن التاسع عشر، وإلى درجة أن « الجمعية اللسانية في باريس قرّرت سنة 1886 رفض أية مقالة حول هذا الموضوع الذي كان يبدو لها أنه قيل فيه كل شيء » (1).

وأما طبيعة النشاط اللغوي « فمعرفتنا بها سيئة، وأما أصلها، فسيتبقى دائماً أعجوبة، ولن يكون سهل البلوغ إلا عبر الأساطير، وبكلمة واحدة لا نعرف متى بدأ الناس يتكلمون، ولا كيف؟ وكل ما نستطيعه أن نحاول وصف اشتغال الألسن الطبيعية والإحاطة من هنا بالمميزات الشاملة للغة، وصياغة فرضيات حول العمليات المُلغزة التي جعلت المخ الإنساني يعمل من أجل أن يُتاح لنا أن نتكلم » (2).

غير أننا نحاول هنا أن نتحدّث عن اللغة Lelanguage لسانياً، لا فلسفياً ولا معرفياً، واللسانيات الحديثة التي ندرسها منذ عقود تشير إلى أن تعريفات اللغة غالباً ما يصحبها ارتيبيات، إذ يكفي أن تجمع بعضاً منها لإعطاء إحساس بهذا الاضطراب الفكري أو الذهني « غير أن لسانياً ينتهي دائماً لإعطاء تعريفه للغة، لأنّ كل تعريف يعكس المستوى المتناول Atteint في التنظيم لمعرفةنا للأشياء، ووصف وتصنيف الوقائع، وتحديد المجال، والمعايير المستخدمة » (3).

(1) Les voies de langage P°: 294

(2) Pour comprendre la linguistique P°: 15 MARINA YAGUELLO

(3) La linguistique (guide alphabétique) P°: 16

ويشير دارسون لسانيون إلى أن تعريفات اللغة سبق لها أن عرفت منذ بضعة عقود رخاوة على المستوى المعرفي للغة والمتناول من قبل اللسانيات الراهنة، لأنه إذا كانت هذه التعريفات كافية، كان يجب أن تكون لهم مقدرة لصياغة معايير نوعية للألسن البشرية *humaines Langues* من عدمها تجاه الأشكال التبليغية الأخرى، وخاصة التبليغ الحيواني «سوى أن المؤلفين الأكثر حداثة لا يريدون أن يذهبوا حول هذه النقطة ذهاباً أبعد من نظرائهم في القرن الثامن عشر الذين كانوا يقررون مبدأ بأن لسانا يفترض تتابعاً لأفكار *Pensées* تعدمها الحيوانات» (1).

1-2 اللغة نظام من العلامات :

وإذا كانت اللغة عادة ما أضحت تُعرّف بأنها نظام من العلامات، فإن كل نظام من العلامات مستعمل من قبل الكائنات الحية للتبليغ يجب أن يُسمّى لغة، وفي هذه الحالة يمكن أن نتكلم عن لغة الحيوان أسوة بلغة الإنسان، غير أننا لا نستطيع أن نبرّر هذا الشعور العام بحسب أن الألسن الإنسانية تتميز أو لا تتميز عن الأنظمة الأخرى للتبليغ الحيواني، وهكذا كلما حاولنا أن نتعمق في ظاهرة تستعصي عن الاجتهاد وصلنا إلى طريق مسدود حتى لو تعلق الأمر، كما هنا، بمحاولة تخليص المعايير النوعية للألسن إنسانية تجاه سائر الوسائل الأخرى التي لا يستغني الإنسان، على الرغم من ذلك، من استعمالها إزاء لغته الصوتية.

وإذا كنا نتبصر بأن اللغة ذلك النظام من العلامات ذو القدرة على أن يكون وسيلة للتبليغ، فإن كل نظام يمكن أن يكون لغة، ولذا فمن الأفضل؛ بل من الأولى، ونحن نتحدث عن اللغة، ألا نشرك ما هو خارج العلامات اللسانية، وأن نعتقد اعتقاداً راسخاً بأن لغتنا، إلى جانب ظواهر أخرى، ليست ماهية سرمدية تجريدية، بل وسيلة حياة ضرورية نشأت مع إنسان هذه اللغة وتاريخه وفكره وثقافته.

1-3 تحديدها ومصطلحها :

وقد يشار إلى اللغة *Le langage* بأنها القابلية أو الاستعداد *l'Aptitude* الملحوظ لدى الناس للتبليغ بوساطة ألسن *Des Langues*، أو هي المجموع لكل الألسن البشرية التي تؤخذ بعين الاعتبار في سماتها المشتركة، أو أزيد من ذلك، وخلافاً للأصول في استعمال الفلاسفة، أنها للتبليغ حتى مع أنظمة أخرى تماماً مثل الألسنة الطبيعية (وظيفة رمزية)، أو أخيراً تعني كل وجهات النظر وصفية كانت أم تفسيرية، والتي تخصّ المظاهر اللسانية، والنفسية، والاجتماعية، السيميولوجية، والإيديولوجية (2).

1 – السابق، ص: 163.

2 – ينظر: *Dictionnaire de la linguistique*, Pⁿ: 196, G. MOUNIN.

وإذا وبمعنى أوسع، فإن اللغة وسيلة للتبليغ المعتمد من مجموعة بشرية ما أو حيوانية (وقالت نَمْلَةٌ: يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ...) لإرسال رسائل Des Messages، وهي مرتبة من وحدات دنيا تدعى علامات أو إشارات، غير أننا عادة ما نفضل استعمال «علامة» لما هو لساني بحت، و«إشارة» لما هو غير لساني (قانون المرور، الإشارات البحرية،...).

وعادة ما يعنى مصطلح «لغة» أنظمة من العلامات أو الإشارات «المباشرة» أو الطبيعية، ولكن اللغة الإنسانية متمفصلة ازدواجياً خلافاً للغة الفيلة، والنمل، والنحل،... فضلاً عن التّواصلات السيميولوجية التي لا حصر لها، أو يعنى هذا المصطلح (لغة) أنظمة «ثانوية» مُعدّة انطلاقاً من اللغة البشرية المترجمة إلى قانون مختلف يبلغ نهاياته النوعية للتبليغ (قانون المرور، رموز الرسائل البرقية،...)(1).

وتفرض اللغة في معناها النظامي الذي يتضمن علامات مباشرة أو طبيعية كائناتاً بشرياً (متكلماً Sujet parlant) خليقاً باللغة وممتلكاً كفاءة لسانية، وهي القواعد النحوية لسانه(2)، وتُشركُ (اللغة) ظواهر موصولة بإرسال المرسل داخل سياق فضائي زمني وثقافي يسمّى مقاما SITUATION دراسة اللغة تستوجب إذاً جوانب نفسية (يتحدث علماء النفس على نشاط لغوي)، واجتماعية وسلالية Ethnologique، وحتى تحليلية نفسية Psychanalytique، فهذه الظواهر غير اللسانية هي التي تميّز مفهوم اللغة Le langage عن تلك المتصلة بمفهوم «اللسان La langue» أو «السّنن (المواضعة) Le code»، وبالمعنى التربوي، فإن اللغة غالباً ما تكون مرادفة لـ «كلام» في استثنائها الأكثر حصراً والأقل سوسوريا Saussurienne، «ملكة الكلام»(3).

1-4 اللغة واللسانيات :

وأما جان دبوا ونظراؤه فجاء في قاموسهم اللساني أن اللغة Le langage هي القدرة النوعية Capacité Spécifique في الحيز الفضائي الإنساني للتبليغ من خلال نظام العلامات الصوتية (أو اللسان)، وذلك بفضل إدخال تقنية مادية أو جسمانية معقدة، وافترض وجود وظيفة رمزية ومراكز عصبية Centres Nerveux مختصة وراثياً، وهذا النظام من العلامات الصوتية المستعملة من المجموعة الاجتماعية (أو التجمع اللساني) والمحدد يكون لساناً خاصاً، وبالنظر إلى المشاكل التي يطرحها هذا النظام، وإلى كون اللغة ذات محلّ لتحاليل مختلفة جداً، فإنه يطبق صلات متعددة، العلاقة بين المتكلم Le sujet واللغة، وهو ميدان علم النفس اللغوي، بين اللغة والمجتمع،

1 - ينظر: Dictionnaire de didactique, P": 305-306.

2 - كل عربي في عاميته متكلم خليق بها (Sujet parlant).

3 - المرجع السابق، ص: 306.

وهو مجال علم الاجتماع اللغوي، بين الوظيفة الرمزية والنظام الذي يؤلف اللسان، بين اللسان ككل والأجزاء التي تؤلفه، بين اللسان بوصفه نظاماً شمولياً Universel والألسنة التي يعدّ كل منها شكلاً من الأشكال الخاصة، بين اللسان الخاص باعتباره شكلاً مشتركاً بزمرة اجتماعية والتحقيقات المختلفة لهذا اللسان من المتكلمين Les locuteurs (1)، كل هذا يشكل المجال للسانيات (2).

2 - اللسان :

2-1 ماهية اللسان :

وأما اللسان فهو كل نظام، « من العلامات الصوتية المتمفصلة ازدواجيا والخاصة بتجمع بشري معيّن، فبالنسبة للسانيات أن الألمانية الأدبية، والألمانية السّوابية Souabe والألزاسية، والبروتونية Le breton، واللغة الهجين لِقَوَادُولُوبْ Guade Loupe أَلْسُنُ بالطريقة نفسها، وليس لنا أي فائدة لتسمية اللسان La langue أو اللغة Le langage نظاما للتبليغ الإنساني (رسم، موسيقى، سنيما، ...) أو الحيواني (نحل، دلفين، ...) والتي لم يُبرهن عليها أنها مُبَنِيَّة Structure كالألسنة الإنسانية الطبيعية » (3).

ويُعرّف DUBOI اللسان بأنه، ووفق المعنى الأكثر شيوعاً، أداة للتبليغ أو نظام من العلامات الصوتية النوعية المتعلقة بأعضاء تجمع واحد، وهكذا نسمي اللسان الطبيعي ذلك اللسان المستعمل في البلد الأصلي للمتكلم، والذي كسبه هذا الأخير منذ طفولته خلال تمرّنه على التواصل اللغوي مع المحيط اللساني الذي نما فيه « الألسن الحية العديدة هي كلها الألسن المستعملة حالياً، وبقدر ما هي مستعملة في التبليغ الشفهي لدى بعض الناس مستعملة في التبليغ الكتابي لدُنْ مختلف البلدان، بينما الألسن الميتة ليست في وضع استعمال شفهي ولا خطي، في عملية التبليغ، غير أنها ما زالت تشهد على هذه الألسن، ... وداخل لسان بعينه توجد تغيرات Variations ذات شأن كبير ناطقة تزامنيا: فعلى مستويات اللسان نتكلم عن لسان شائع مستقيم Soutenue، تقني، علمي Savante، شعبي خاص بطبقات اجتماعية، وبفرق صغيرة Sous groupes (عائلة، مجموعات مَهْنِيَّة)، وفي هذا الباب نضع الأنماط المختلفة للعامية ARGOT، وبالنسبة للتغيرات الجغرافية نتكلم عن اللهجات واللهجة المحلية Le Patois، ونميّز أخيراً داخل لسان بعينه وسيلتين مختلفتين للتبليغ، وكلتاها ممهورة DOTE بنظام خاص: اللسان الخطي، واللسان المنطوق » (4).

(1) Dictionnaire de linguistique, Pⁿ: 274

(2) Dictionnaire de linguistique, Pⁿ: 196-197 G. Mounin

(3) Dictionnaire de linguistique, Pⁿ: 196-197 G. Mounin

(4) Dictionnaire de linguistique, Pⁿ: 276 J. DUBOIS

2-2 اللسان نظام من العلامات :

وتعتبر مدرسة براغ PRAGUE، بمن في ذلك دي سوسور قبلها، وكذا البنيوية الأمريكية، اللسان نظاماً من العلامات، وبأكثر دقة، كمجموعة من الأنظمة المربوط بعضها ببعض، ليس لعناصرها (أصوات، كلمات، ...) أية قيمة بمعزل عن علاقات مُعَادِلَة والتعارض الذي يربطها، وكل لسان لا يخلو من هذا النظام النحوي الضمني المشترك لدى من يتكلمون هذا اللسان. ومما أصبح مدرّكاً لدينا، ومنذ مدة، أن متكلماً غير سليقي في لغته الأدبية أو العلمية أو المهنية، والذي لا يعدم نظاماً نحوياً ضمنيّاً مشتركاً بينه وبين من يمارسون العامية نفسها، إذ لا يوجد قالب لغوي تركيبي واحد خال من هذا النظام، وبما أنه ضمنيّ، فإن التهجين أو التشويه الذي يعتري البنيات الأخرى لهذا القالب التركيبي المشتق اشتقاقاً سيئاً من الفصحى لا يؤثر في التواصل العامي طالما أنه محال دوماً على مرجعية نحوية أصيلة سبقته تداولاً نطقاً ثم خطباً، ومن ثم فإنّ عامياتنا مزعجة، لكنها لا تشكل خطورة بالقدر المبالغ في تصوّره على الفصحى، وإلا قوّضتها منذ أمد.

2-3 بين اللغة واللسان :

وأما دي سوسور الذي تعود اللسانيون قاطبة أن يحيلوا عليه منذ زهاء قرن، فإنه يرى أنه لا بدّ من أن يأخذ اللسان *La langue* مكانه، وأن يُتخذ معياراً لكل التظاهرات اللغوية الأخرى، لأنه من بين الثنائيات المتعددة، يبدو اللسان وحده قابلاً لتعريف مستقل ومزوّد الفكر بنقطة ارتكاز مرضية، وعندما يتساءل: ماهو اللسان؟ يجيب بقوله: « بالنسبة لنا ألا نخلطه باللغة *Le langage*، إنه ليس إلا قسمًا محدداً وجوهرياً، صحيح هو في وقت واحد نتاج اجتماعي للملكة اللغة ومجموعة من التواضعات الضرورية المتبنّاة من الجسم الاجتماعي للسماح بممارسة هذه الملكة عند الأفراد، واللغة *Le langage* إذا ما نظرنا إليها ككل، فإنها متعددة الأشكال وشاذة *Hétéroclite* ومُفَرَّشَحَة *à cheval* (1) على جميع الأصعدة، فهي، أي اللغة، في الوقت ذاته فيزيائية، وفيزيولوجية، ونفسية، وعلاوة على ذلك تنتمي إلى الحقل الفردي والحقل الاجتماعي، ومن الصعب تصنيفها في أي فئة من الوقائع الإنسانية، لأننا لا نعرف كيف نهتدي إلى وحدتها، وعلى العكس من ذلك، فإن اللسان *La langue* كل في حدّ ذاته ومبدأً للتصنيف، وما إن نعطيه المكانة الأولى من بين وقائع اللغة *Le langage* حتى ندخل ترتيباً طبيعياً في مجموعة لا تنسجم مع أي تصنيف آخر، وإزاء هذا المبدأ من التصنيف، فإنه يمكننا أن نعارض بأن ممارسة اللغة يقوم على ملكة تكسبنا إياها الطبيعة، في حين أنّ اللسان شيء مكتسب واتفاقي، والذي يجب أن يكون تابعا للسليقة الطبيعية بدل أن يعلو عليها» (2).

1 - ترجمنا *à cheval* مُفَرَّشَحًا، وهو الفتح بين الرجلين جلوساً أو وقوفاً، ...

(2) Cours de linguistique générale, P^{re}: 23-24 SAUSSUR

3-النظام اللساني :

3-1 النظام لسانياً :

وبالنسبة للنظام في معناه العام أن بيرو PIROU حدّده سنة 1966 بأنه « مجموعة من العناصر المتعلقة الواحد منها بالآخر والتي تشكّل كلاً »⁽¹⁾، أو هو كلية مُنَبَّية Structuré تفترض علاقات من التبعية والتضامن بين العناصر التي تؤلّفه، ويبقى مصطلح النظام لسانياً أقرب إلى مصطلح بنية، لأننا ونحن نتحدث عن البنية نُلحّ على شكل التنظيم نفسه، أو الحقيقة الموضوعية بوصفها مركّبة من أقسام متضامنة ومتعلق بعضها ببعض، ويهدف هذا المفهوم من النظام بمعناه العام إلى الدلالة على المجموعة بقدر شكلها المطابق للعقل، فالنظام الفونولوجي -مثلاً- كمجموعة من الفونيمات المترابطة تتضح فونيمات منها بحسب الأخرى.

3-2 اللسان نظام أنظمة؟

وبمعنى أخص، فإن النظام بمعناه السابق لا يتعارض مع اللسانيات والسيميولوجيا، وهو هنا في خصوصيته يعادل اللسان عند دي سوسور الذي كان يعرف اللسان كنظام من العلامات الذي لا يعرف إلا ترتيبه الخاص، ذلك أن الوحدات اللسانية وحرية تصرّفها التوافقي أو التنسيقي تحدّد « انطلاقاً من النظام ومفاهيم التعارض والقيمة الناجمة عن هذا الإدراك الذهني، وبالنسبة للعديد من خلفاء دي سوسور أن اللسان كنظام مكوّن من مجموعة أنظمة فرعية Sous-systèmes والتي بإمكانها أن تستمرّ في مستوى من التحليل (نظام فونولوجي) أو في صنف آخر (نظام فعلي)، ومن ثم يمكن إذاً أن نفهم اللسان كنظام أنظمة »⁽²⁾.

3-3 ماهية النظام اللساني :

وعموماً، فإن النظام بالنسبة للسانيات الديسوسورية وغيرها لا يبتعد عن كونه يشكل النواة المحورية يجمعه عناصر مترابطة ومؤثر بعضها في بعض علائقيّاً، ولذا يبقى دي سوسور رائداً أوّل في تحديد ماهية النظام اللساني، فهو ينطلق من أن الفوارق الصوتية التي تكوّن كلمة هي الحاملة لدلالاتها، وليس الصوت في ذاته (في لسان لا توجد إلا الاختلافات) موضعاً ذلك: « اللسان لا يتضمن أفكاراً ولا أصواتاً كان وجودها يتقدّم النظام اللساني، بل كل ما في الأمر ثمة اختلافات تصورية وأخرى صوتية منبثقة عن هذا النظام، وما يوجد من فكرة أو مادة صوتية في علامة ما هو أقل أهمية مما يحيط به في العلامات الأخرى، ولا أدلّ على ذلك أن القيمة

(1) Dictionnaire de dis lactique des langues, P": 550

2 - نفسه، ص: 551.

اللسانية في كلمة يمكن تغييرها دون المساس لا بمعناها ولا بصوتها، لكن فقط بسبب أن عبارة أخرى مجاورة ستتحمل ما وقع من تعديل» (1).

ويرى دي سوسور أنه لكي نقول إن كل شيء في اللسان سلبي، فهذا لا يكون صحيحاً إلا في المدلول والبدال وهما معزولان، وما إن نعتبر العلامة في شموليتها حتى نجد أنفسنا أمام شيء لا يكون صحيحاً إلا في المدلول والبدال وهما معزولان، وما إن نعتبر العلامة في شموليتها حتى نجد أنفسنا أمام شيء إيجابي في ترتيبه مردفاً «أن نظاماً لسانياً سلسلة الفوارق من الأصوات المنسقة Combinées مع سلسلة فوارق من الأفكار، بيد أن هذا التقابل بين عدد ما من العلامات الصوتية السمعية Acoustiques مع عدد مساو من التقطيعات في كتلة Masse فكرية يؤول إلى توليد نظام من القيم، وهذا النظام هو الذي يكوّن الرابط الفعلي بين العناصر الصوتية والفيزيائية داخل كل علامة، مع أن المدلول والبدال المأخوذ كل منهما على حدة متباينين وسلبيين بصورة محضة نسقهما واقعة إيجابية، لا، بل إن هذا هو النوع Espèce الوحيد من الوقائع التي ينضوي عليه اللسان، طالما أن خاصة المؤسسة اللسانية إنما تنهض بالحفاظ على التوازي بين هذين الترتيبين من الفوارق» (2).

3-4 النظام والبنية؟

وتضبط بعض المراجع اللسانية البنيوية النظام اللساني ضبطاً شاملاً محيلة على مختلف اللسانيين ونظرياتهم، ومما تراه أن هذا النظام يفهم إما اجتماعياً كما هو الشأن بالنسبة لدي سوسور، وإما مُستَبَطَّناً Intériorisé أي يُعبّر عنه بنشاط نفسي داخلي من قبل المستعمل للسان، وهو اتجاه شومسكي (3)، ولا تختلف مجمل النظريات التي تبنت الطروحات الديسوسورية بأن النظام اللساني، وهذه الفكرة المركزية سمحت للسانيات بأن تصير «علماً للنظام»، وبالإضافة إلى ذلك وهبت البحث اللساني العصري نقطة انطلاق لتحليل أسسها، الخاصة، لأن «أحد مساعي اللسانيات الأوّل كعلم منهجي Systématique تقديم معطيات ملموسة حول الطبيعة والماهية وتعقيد أنظمة فرعية ما بين اللسانيات، ومن المناسب أيضاً تناول وتقديم الالتحام الداخلي لعناصر نظامية وعلاقاتها الوظيفية بما في ذلك درجات التوازن والتجانس للنظام، ... وهل النظام وسيلة نظرية للمعرفة، وتجريد للذهن الإنساني، أو أزيد من ذلك، هل هو أداة للوصف المستخدم من قبل العالم؟ وأية علاقة له بين مفهوم «النظام» ومفهوم «بنية»؟ والبنية أهي ماهية Entité غير مادية؟ أو تشكّل حقيقة قابلة لأن تُلمس وتُكشف في الظواهر التي تمثلها؟» (4).

(1) C. L. G, Pⁿ: 192

2 - نفسه، ص: 192.

(3) Introduction à la méthodologie structurale de la linguistique, Pⁿ: 48

4 - نفسه، ص: 48.

4 – النظرية الشمولية أو الكونية للغات :

4-1 القالب أو النموذج :

إن كلمة الشكل في القواعد النحوية واللسانيات تشير قبل كل شيء إلى القالب أو النموذج أو المثال الذي يُسبك في ضوء شكله المعهود شكل أو أشكال لا نهائية غير معهودة، والقالب Le moule أو Pattern قريب من القياس L'analogie أو النظير L'analogue، لأن القياس تشابهي ترفع ما جاءنا مرفوعاً، وتَنْصِب ما ورد قبلنا منصوباً،... والنظير يدل على ما يضارعه مماثلة، ومنه نظرية المقاربات .

إن القالب يعطي ما يوجد بلا شكل Informe محدود شكلاً محدوداً بلا حدٍّ أو محيط، وعلى هذا يأخذ « شكل » استعماله النحوي واللّساني معاني متنوعة قابلة للتصنيف تبعاً لزوجية التعارض المُقَيّد به (شكل ≠ مادة، شكل ≠ محتوى، شكل ≠ معنى، شكل ≠ جوهر (أو ماهية) Substance، شكل ≠ وظيفة)، ولذلك أشرنا إلى أن القالب قريب من القياس أو النظر، ولكن استعماله لدى اللسانيين يختلف تقليدياً عن استعماله لدى النحويين القدماء، فالقياس قياس مجهول على معلوم، أو ما لم يستعمل على ما سمع مستعملاً، وهذه العملية لا تتم خارج التركيب، بينما الشكل يقوم على ازدواجية التعارض، وعلى بنية ليس بالضرورة أن تكون تركيباً.

4-2 الشكل والمادة :

كان أرسطو أشار إلى أن ماهية موضوع مسلّم به ومتميز، وقابل لتحديد هويته تتركب من مادة (فيزيائية مثلاً) ومن شكل خاص مفروض على هذه المادة مُعْطٍ للموضوع أو الشيء نتيجة لهويته ودوامه (1).

غير أن كلمة « مادة Matière » بعد أرسطو بدأت تُفسّر وتُشرح بشكل غير محسوس كإشارتها إلى « المحتوى »، « موضوع محتوى »، « الأفكار »، « المعنى » حتى أضحت تقريباً تعادل « التعبير L'expression » لترتبط بمستويات اعتُبرت غير دلالية Non sémantique كالمستوى الصوتي، والفونولوجي، والسانتكسي .

وبالنسبة لأشهر المدارس اللسانية، فإن التوزيعية تقابل الشكل والمعنى ذاهبة إلى أن الأشكال اللسانية القابلة للملاحظة وحدها تتعلق بالتحليل، بينما المعنى يبقى خارج المجال اللساني، في حين أن الوظيفية تميز الشكل والوظيفة: وتنادي بدراسة وظيفية « واقعية » لا شكلية Formelle Non متعلقة بتشكيل صوري Formalisme، وكان دي سوسور صرّح علناً بأن اللسان شكل وليس مادة « وبعبارة أخرى، اللسان La Langue شكل وليس مادة La Langue est une forme et Non

une substance، وليس إلا أن نقتنع بهذه الحقيقة، لأن كل أخطاء مصطلحاتنا، وكل تصرفاتنا المغلوطة لتعيين أشياء اللسان تصدر عن هذا الافتراض غير الإرادي، وكأنّ مراده أن هناك مادة Substance في الظواهر اللسانية» (1).

لعله لما يسوّغ لنا إدراكه، ولو من باب سطحي، أن اللساني الفرنسي جورج مونان لم يكن فارغ الذهن ولا مجرداً من البراءة، وهو يشير إلى أن اللغة Le langage التي نتداولها، كما سبق أن ألقينا، ليست إلا تلك التصرفات والأفعال الإرادية أو اللاإرادية التي نلاحظها ونعاينها لدى كل الناس للتبليغ من خلال ألسن أو هي مجموعة كل الألسن الإنسانية المُعتبرة في سجاياها المشتركة، أو هي أيضاً ما يشار بها إلى ملكة التبليغ التي نفتنيها منذ نعومة أظفارنا لا شعورياً.

وليس غرضنا هنا أن نتعمق في إبراز العلاقة الكامنة من هدمها بين الشكل واللاشكل والمادة ونحو ذلك، وهو موضوع آخر، ولكن ما توصل إليه البحث اللساني الحديث أن شيئاً أو غرضاً لا يشار إليه بواسطة حقيقته الفيزيائية وحدها، ولا بالملكيات التي يملكها، ولا بانتمائه إلى صنف من أصناف الأشياء، ولا بطابعه الذي يقبل إحصاء من عدمه، ولا بحضوره أو غيابه في سياق عملية التبليغ، طالما أن لغتنا الصوتية «العلاماتية» ليست في حاجة إلى أن تكون أشياءها حاضرة للدلالة عليها، ولا حتى إلى وجودها، لأن «النشاط اللساني نشاط رمزي، فاللساني يقوم بخدمة التوصيل إلى الفكر الذي يتلفظ بتصورات لا بسمات Labels مطبّقة على الأشياء، فسَمّى Nommer يعود إلى التصنيف والتنظيم للعالم، فالكلمات لها سلطة التنظيم في مفاهيم تصورية: فالكلمة تخلق التصور تماماً كقدرة التصور على استدعاء الكلمة، إذ كل نشاط جديد، وكل فكرة جديدة، وكل حقيقة جديدة تستدعي تسمية، لكن هذه التسمية هي التي تمنح هذه المسميات الجديدة وجودها... الكلمات تؤلف نظاماً مستقلاً بمعزل عمّا تشير إليه، والعلامات (بما أن الكلمات علامات) يتعين بعضها بالنظر لبعضها الآخر، بل إن علامة ممكن تأويلها Interprétable دائماً من خلال علامات أخرى، إما داخل السّنن Le code نفسه بواسطة الترادف، وشرح نص Paraphrase، وما تعرّفه المعاجم، وإما من خلال نقل Transposition في سنن آخر كما هو الحال في ترجمة تدل صعوبتها بعدم وجود علاقة تحافظ على المعنى نفسه في أشكاله المختلفة Univoque بين الكلمات والأشياء» (2).

(1) C.L.G, P^o: 195

(2) Pour comprendre linguistique, P^o: 92 MARINA YAGUELL

4-3 اللغة في وضعها الميتا لساني :

ومما توصلت إليه الأبحاث اللسانية والأنثروبولوجية (الأمريكية خاصة) أن ما يدعى ميتال لساني *Métalinguistique* (أو فوق لساني...) كل ما هو أبعد من اللغة، أي الواقع غير اللساني الذي تحيل إليه اللغة كعالم من المرجعيات الدلالية التي تشير إليها الألفاظ اللغوية والتعيينات أو الدلالات الذاتية وكذا التضمينات (المفاهيم المقترنة بلفظة ما)، وهذه العوالم المحال عليها تشكل لبّ محتوى ثقافتنا وحضارتنا المعبر عنها عبر ما نتواصل به من لغات، ولذا فلا نعجب أيّما عجب إذا ما وجدنا رومان جاكبسون يعدّ وظيفة ما فوق لساني إحدى وظائفه السّت التي بمقتضاها يتخذ المتكلم السنن *Le code* الذي يستعمله كموضوع لخطابه على الأقل في وضع خاص⁽¹⁾.

4-4 الذخيرة العلامية بين اللغات :

ذلك أن عوالم اللغات في وضعها الميتالي لساني تكاد تقول الشيء نفسه بالنسبة لمعانيها، إذ لا يتصور عاقل واع أن ما يحيط بعالم لغة في زمان ومكان متزامنين أو حتى متباينين مختلف اختلافاً جذرياً أو جوهرياً بين لغة يجهل أصحابها لغة أو لغات أخرى، وإذا ما وجد هذا الاختلاف المتنامي فعلاً في مستواه الدلالي العام أو الخاص، فلن يكون خارج لغة بذاتها، ولا صلة له بما يتنامى في لغة أو لغات أخرى في وقت واحد أو مختلف، وهنا تكمن إحدى صعوبات الترجمة بل صعوبة شرح نص على مستوى لغة بعينها في غير أوانه.

وإذا كانت اللغات تتشارك أو تشترك كلها في ذخيرة من العلامات، فإن ما يميز إحداها عن الأخرى، أن واحدة منها تعمل على تغيير ما يمكن تغييره أو ما تقدر على ذلك بفضل تطورها التكنولوجي والفني وتنوعها الإبداعي، والأخرى لا تكاد تتجاوز عقبة المخزون الثابت لتستورد عوض ما كان على أصحابها أن يخلقوه، بسبب ساستها الذين نسوها فأنستهم أنفسهم، وكأنهم لا يميزون بين اللغة كأداة طيّعة للتعبير عن أي جديد يُبتكر، والمدلولات المستحدثة في غير فضاء لغتهم، أي يسقطون عجزهم وفشلهم على لغتهم الثرية، لكن في عالم نائم من المعاني التي تنتظر منهم مجرد إشارة للاستيقاظ والفعل.

وسبات عالم المعاني في لغة - كالعربية - لم يُوقظ بعد ممّن يدعون أنهم يتبنونها ويقسمون على احترامها، لا يعني أن ما ينطبق على لغة ينطبق على لغة أخرى بدعوى الشمولية اللسانية أو الكونية الشيعيّة، أو بحجة الترجمة من لغة إلى أخرى، لو كان الأمر قريباً من ذلك فقط لتغير وتطور عالم المعاني النائم في فضاء لحظة تحرّك عالم المعاني اليقظ في فضاء آخر، فالعلامات مشتركة فيما بينها وبين نفسها ذاتياً، ولا علاقة لها بصورة مباشرة بلغة تعبّر بها، وأخرى تُضرب عنها، فعالمها المتحرك عالم عامل ومنتج، وعالمها النائم عالم كامل ومستهلك.

1 - ينظر : JAKOBSON R. 220 P. : Essais de linguistique.

4-5 فيم تتشابه اللغات ؟

وإذا كنا نميل قطعياً إلى كونية شمولية للتصورات المشتركة التي تتعاطاها ألوف من الألسنة الطبيعية، ومثلما أشار إلى ذلك Dumarsais منذ العقد الثالث من القرن الثامن عشر (1929) : « توجد ملاحظات في القواعد تتناسب مع كل اللغات »⁽¹⁾، فإن شومسكي يرى أن رؤية مارسى تشكّل ما نسميه قواعد اللغة العامة مثل الملاحظات التي نبديها على الأصوات التي تُنطق، وعلى طبيعة الكلمات، وحول الكيفيات المختلفة التي يجب أن تكون منسّقة Arrangés لخلق معنى، وبالإضافة إلى ذلك أن هذه الملاحظات العامة لا تخصّ إلا لغة خاصة، وهو ما تشكّله القواعد الخصوصية لكل لغة⁽²⁾.

إن اللسانيين لا يزال ينقصهم الكثير من الوقت والجهد لإثبات تشابه الألسنة في بنياتها الخاصة، ولكنهم توصلوا إلى ملاحظة تشابهات لا يستهان بها فيما يخص التنظيم السطحي لها، مثال ذلك أن كل الألسنة المعروفة تحوي تمفصلاً مزدوجاً على مستوى الوحدة الدالة (المورفيم أو المونيم)، والوحدة الصوتية التمايزية (الفونيم)، وتشمل فونيمات محصورة غالباً ما تكون أقل من خمسين، فضلاً عن الفئات السانتكسية (اسم، فعل، فاعل، ...) وعلاقة المسند بالمسند إليه...⁽³⁾. غير أن الإشارة السابقة لتشابه اللغات في بنياتها الفونولوجية والنحوية والدلالية لا تنهض دليلاً على وجود لغة عالية على لغة أخرى، كل لغة تفصح عن عالمها الخاص والعام بكيفية لا تفصح بها لغة أخرى في كل حال، فنحن نعبر بضمير وحيد عن المثنى المؤنث والمذكر، والجمع مذكراً ومؤنثاً، إذ نقول :

ذهبنا

نحن ذهبنا 1) - من يتكلم

ذهبنا

ذهبنا 2) - مثنى أم جمع؟

(1) Dictionnaire de didactique des langues, Pⁿ: 579

2 - يراجع المرجع أعلاه، ص: 579-580.

3 - ينظر المرجع السابق، ص: 580.

والفرنسية أسوأ من العربية، لأنها لا تعبر إلا بضمير وحيد Nous (نحن)، ولا وجود للمثنى فيها، وهذا يختلف تماماً مع الواقع الميتا لساني، وهذا خلافاً للغات أخرى كالملاغشية، واللغات الهندية الأمريكية، والفلبينية، وبعض اللغات الآسيوية،... (1)، ولغات تميز تمييزاً دقيقاً بين الجنس كما أوضحت اللسانية مارينا ياغيلو Marina yaguello في أحد أبحاثها (الكلمات والنساء)، ولغات أخرى لا تفعل ذلك بدقة أو لا تميز تماماً.

وإذا كنا لا ننكر أن اللغات شبكة آمنة من المعاني اليقظة والنائمة، فإنها تتفق في شيء، وتختلف في شيء آخر: تتفق عالمها اللانهائي، وهو العالم المشترك، وفيه تتنافس اللغات عولمياً، وتختلف في عالمها اللانهائي، وهو العالم المشترك، وفيه تتنافس اللغات عولمياً، وتختلف في عالمها النهائي، وهو العالم المتميز، وفيه تتصارع اللغات محلياً وعولمياً معاً، والبقاء لما هو مستعمل وعامل، والفناء لما هو جامد أشلّ.

4-6 لكل لغة ميتافيزيقيا :

لقد أثبت اللسانيان الأمريكيان إدوارد سابير E. SAPIR وُورف WHORF أن التقطيع اللساني Le découpage linguistique لا يتزامن مع الواقع، وهذه الفرضية تطرح مبدأً أن رؤية المتكلمين للعالم تجد تنفسها محددة تحديداً كلياً من خلال لسانها وكتب بنيامين لي ورف ذات يوم أن كل لسان «نظام رحب من البنى مختلف عن نظام الألسنة الأخرى، وهي تنسق ثقافياً الأشكال والفصائل التي لا يتصل بها الفرد وحسب، بل يحلل أيضاً الطبيعة، ويستقبل أو يهمل هذا النمط أو ذاك للظواهر والعلاقات التي بوساطتها يعبر عن تصرفه في التفكير، والتي عبّرها ينشئ تكوينه لمعرفته للعالم وأننا نشرح الطبيعة تبعاً لخطوط مرسومة سلفاً من خلال ألسنتنا الطبيعية» (2).

ومما فرضه وُرف WHORF أن اللغات المتباينة تعكس العالم الذي حولنا عكسا مختلفا «بل إن المفاهيم العامة الأبدية مثل الزمان والمكان اتخذت مسميات مختلفة في اللغات المتباينة، ويكشف لنا كل هذا عن أوجه الاختلاف في الدلالة على الأشياء والألوان والظواهر والخصائص المميزة، وهذه حقائق أكّدها علم اللغة ولا سبيل إلى بعضها، بيد أن الحقائق يمكن تأويلها بطرق متباينة» (3).

1 - يراجع : Pⁿ: 98 Pour comprendre linguistique.

2 - المرجع السابق، ص: 99.

3 - الأصوات والإشارات، ص: 65 أ. كندراتوف

ذهب ورف إلى أبعد من ذلك لما زعم أننا أسرى اللفظ، وأن لكل لغة ميتا فيزيقيا خاصة بها، ولكن ما من شك في أنه كان محققاً حين ذهب إلى أن اللغة تؤثر على تفكيرنا في ظروف معينة، حتى وإن اعترض عليه من بعض الدارسين أن التأثير يتعلق بنمط التفكير لا بجوهره. وانطلاقاً من أن لكل لغة ميتافيزيقيا خاصة بها دون إلغاء التماثلات التحتية للمداليل الأكثر شيوعاً بين اللغات، وإلا أُلغينا العالم اللانهائي المشترك بينها، فإن لكل لغة، بوصفها مؤسسة جماعية وتقليدية تربط الخلف بالسلف والماضي بالحاضر، وتصل هذا الأخير بالمستقبل، شذوذها ولا معقوليتها، وكل لغة تعبر عن لا تماثل مُلازم لطبيعة العلامة اللسانية ولكن هذا لا يجعل اللغة أقل من أن تكون نظاماً منصاعاً لمستوى نوعي ومُفصلاً من خلال مجموعة علاقات تحتمل تقعيدات، إن العمل المتمهل واللامنقطع الذي تم داخل لغة لا يحدث صدفة، إنه يقوم على علاقات أو تعارضات، والتي هي ضرورية أو غير ضرورية بحيث تعمل على تجديد أو مضاعفة التمييزات المفيدة في كل مستويات التعبير، وأما التنظيم السيمانطيقي للغة فلا يتخلص من هذا الطابع النظامي، ولأن تكون اللغة أداة لتنظيم العالم والمجتمع، فإن هذا يجب أن ينطبق على عالم معتبر كـ«واقعي Réel» على أن يعكس عالماً «واقعياً»، سوى أن كل لغة هنا ذات حالة نوعية تصوّر العالم بأسلوبها الخاص، والتمييزات التي تتمظهر بها كل لغة يجب أن تكون معزوة إلى المنطق الخاص الذي يدعمها، لا أن تكون خاضعة دفعة واحدة D'emblée إلى تقويم شمولي Universelle، وبهذا الخصوص، فإن اللغات القديمة أو الأركية ARCHAÏQUES لم تكن أكثر ولا أقل شذوذية من تلك التي نتكلمها، كل ما لها وحسب التفرد الذي نُعيره إلى الأشياء مألوف قليلاً، ومع ذلك فإن فئاتها Leurs catégories الموجهة بخلاف فئات لغتنا لها التحامها» (1).

4-7 بين الصوت والمعنى :

إذا رغب راجب في أن تكون له لغة مستقلة لا تعبر إلا عنه، فَلْيَبْحَثْ عن عالم من المعاني لا يتصل إلا بلغته، والعكس غير مردود «ن، وَالْقَلَمَ وَمَا يَسْطُرُونَ» لا تعني إلى إلا «ن، والقلم وما يسطرون» سواء عُبِّرَ عنها بالعربية أم بغيرها، إلا إذا لم يكن في عالم لغة «نون»، ولا «قلم» ولا... ومن ثم، فإن الأهمية لا تُعطى للغة التي تستعمل القلم بقدر ما تُعطى لقوم متعلمين وآخرين أميين، لقوم يعرفون كيف يسخّرون هذه الأداة سواء قُدَّتْ من قصب أم معدن راق، وآخرين يتباهون بشكلها وبهاء لونها ومصدر صنعها دون زيادة ولا نُقصان، ومثلما الكلب لا ينبح، والذئب لا يعوي،... فإن القلم أيضاً لا يَسْطُرُ.

(1) Problèmes de linguistique générale, P^o: 82 BENVENISTE

ومما تقدم يشير، وبدون تحفظ، إلى أنَّ الصلة بين الصوت والمعنى، بين الدال والمدلول صلة مواضعة وسنن ثقافي معتاد، على الرغم من أن اللغة بالنسبة للمتكلمين تتطابق في منظورهم مع عالم يعتبرونه طبيعياً، ولم يعد اليوم، ومنذ مدة، بين اللسانيين المحدثين خلاف جوهري في أنه لا توجد صلة طبيعية بين وجهي العلامة بتصور دي سوسور، وما قد يوجد من محاكيات صوتية Les onomatopées في لغة أو كل اللغات المعروفة لا يقوم مبرراً على أية صلة طبيعية بين [ق/ل/م] ووظيفته وما قد يلجأ إليه متكلم عفواً أو قصداً لا يعدو أن يكون حالة عرضية خارج المألوف أو وظائف فوق مقطعية، فأنت إذا أعجبت بصوت السين وصفيره الدال على عزة البحري وكرامته وأنفته :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدًا كل جيس
وتماسكت حين زعزعني الدهر التماساً منه لتعسى ونكسي
فإن هذا الانفعال اللامتوقع من المتكلم لا ينهض دليلاً على أن الكلمات التي احتوت السين تحكي أصواتها أصوات الأشياء التي تصفها.

5- رهانات اللغة العربية عربياً :

1-5 العربية ورهانها بين عهديين :

لطالما تحدث العرب قبل الإسلام بألوف من السنين بلغة لا نحسب أنها نفس اللغة التي وصلتنا بها أشعارهم، وحكمهم وأمثالهم، وثقافتهم، وحضارتهم، وعلومهم، ولكنها لغة على أي حال تطورت عبر الاستعمال والابتكارات والإبداعات، ولو بطريقة شفوية، إلى أن بلغت نقطة أسمى ما يمكن أن تبلغه لغة على وجه الأرض.

والذي يقف على هذه اللغة في تراثها الأدبي والثقافي وكل مجال من المجالات الدلالية، فضلاً عن قواعدها، وأساليبها ونظمها، لا يملك نفسه من الاستغراب تارة، والإعجاب تارة أخرى، ويطرح على نفسه تساؤلات ليس في مقدوره أن يجيب عنها، وهو مقتنع في قرارة نفسه، لتكون الحيرة مآله أو خلاصه الوحيد، وحتى يتخلص من هذا الاحتيار يلتفت إلى آراء منها ماهو قديم، ومنها ماهو حديث، والتي تربط وجود العربية، بوجود ما وصلنا من تراثها الأدبي والعلمي والثقافي الذي دُون مسموعاً بعد سطوع الإسلام بنحو قرن ونصف.

ما العربية التي نتواصل بها اليوم فصيحة أو عامية مشتقة اشتقاقاً مشوّهاً ومُهَجَّناً من الفصحى إلا امتداد لساني طبيعي تاريخي لتكلم وتخطب أجدادنا بعد الاختلاط الذي حدث بين فاتح ومفتوح، وليست هذه اللغة إلا إحدى اللغات السامية، إن لم تكن هي اللغة الأم نفسها للساميات، والتي كانت لغة أدبية راقية سليمة قبل الإسلام، ولما جاءت المرحلة العربية

الجديدة بعد مجيء الإسلام كانت هذه اللغة لغة التنزيل والقضاء والدولة والجيش والإدارة والمعاملات والصكوك،...

ورغم أن ثمة تراكييب وألفاظاً بعينها قد زالت بزوال العصر الجاهلي، فإن ما جاء به الإسلام وعوّضته العربية كان يشكل أضعاف ما فقد أو هجر أو أهمل وحسبك أن تستدلّ بأحد النصوص لِلْفَقْلَغِيِّ (فقيه لغة) العربي ابن فارس: «كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونساکهم وقرايينهم، فلما جاء الله جلّ ثناؤه بالإسلام، حالت أحوال، ونُسخت ديانات، وأبطلت أمور ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخرى بزيادات زیدت، وشرائع شُرعت، وشرائط شُرطت، فعفى الآخر الأوّل،...»⁽¹⁾، يقول هذا عالم لغة توقيفي.

وحسبك أن تنظر إلى عيّنات من المصطلحات الفقهية، واللسانية، والعلمية، والإدارية، والفلسفية، والعسكرية،... لتقف على الرهان الرائد القوي لهذه اللغة تعبيراً عن كل وظيفة من وظائف عصرها الذي جعل يتمدّن ويتغير ويتأسّس في كل حقل من حقول البحث، وفي كل منحى من مناحي الفكر والاجتماع والحياة.

إن أثر الإسلام في العربية انبرى أمراً بديهيّاً لإثرائها وترقيتها وترويضها، ولم تقف عاجزة ولا متردّدة أمام أي مدلول مستحدث منها أو معرّب فيها أو مترجم لاحقاً إليها، في أي مجال علمي وتكنولوجي، بل لم يكن هناك أي مجال يتحدّاه أمام قدرتها وطاقاتها الانتقالية الجديدة، وقد وسعت كتاب الله، واستوعبته لفظاً لفظاً، وآية آية،.. أم هناك على مرّ العصور وبروز العلوم تكنولوجية جافة أوسع من مداليل القرآن، وأقصى حاجة من حاجات القرآن الذي تكيفت معه هذه اللغة بنظم إلهي لتبليغ مضامينه الناس تبليغاً لا يقتصر على زمان أو مكان.

إن العربية ورهانها في حياتها الانتقالية الجديدة ما كان لها أن تقف شامخة صلدة أمام ما جدّ من ألوف من المصطلحات الجديدة لولا أنّ كل مصطلح يطفو إلا ويتقدّم برؤزه اصطلاح دلالي نواتي أصيل، وإلا اضطر صانع المصطلح إلى طرائق أخرى خارج اللغة الأصل، لأنه إذ ما وجد مصطلح «في لغة من اللغات تجهل نواة اصطلاحه التي اشتق منها أو قيس عليها دلاليّاً بكيفية من الكيفيات، فإن الأمر لا يعني إلا شيئاً واحداً، وهو أن ذلك المصطلح المجهولة أو المنعدمة نواته في اللغة التي تبنته مصطلح دخيل في هذه اللغة»⁽²⁾، فعدم وجود كلمة «قَطْران» الذي يُعنى به أصلاً في العربية ما يتحلّل من شجر الأُبْهَل⁽³⁾، والمشتقة من «قَطَر» في لغة كالفرنسية، لا يعني إلا شيئاً واحداً، أي كلمة GOUDRON دخيلة فيها عن طريق العربية، وكل ما فُرنس فيها من مشتقات:

1 - فقه اللغة، ص: 78 وما بعدها، أحمد بن فارس.

2 - مجلة «اللغة العربية»، ص: 203-204 عدد 9، عام 2003.

3 - حَمَل شجر كبير، ورقه كالطرفاء، وثمره كالنبق، يزعمون أن دخانه يُسقط الأجنّة سريعاً، ويُبْرِئ من داء الثعلب طلاءً بخلّ وبالعسل يُنقى القروح الخبيثة، ويطلّى بالقطران الإبل «كأنّي مَطْلِيّ به القَطْران أجرب»، وبهذه اللغة (فتح القاف وكسر الطاء) قرأ السبعة في قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرِانٍ﴾ وفي عاميتنا بفتح القاف وسكون الطاء.

GOUDRONER (الفعل) قَطَّرَ أو طلا بطلاء القطران

GOUDRONNAGE قطرنة وتقطرن .

ROUTE GOUDRONNEE طريق مقطرن .

OUVRIER GOUDRONNEUR عامل مقطرن

GOUDRONNEUSE آلة القَطْرنة (مُقَطْرنة) .

أصله عربي، ومن ثم فإن كلمة «القطار» المعروف كلمة عربية لا ارتياب فيها لوجود اصطلاح خلفي نواتي كان يدل على عدد من الإبل تسير على نسق واحد، وجَمَّعه قُطْرٌ، وهو فعال بمعنى مفعول مثل كتاب وكتب وبساط وبُسط، وكان هذا النسق من الإبل يطلق عليه مقطور،... ونرجح أيضا أن كلمات في الفرنسية مثل MALADE (مريض) وMALADIE (مَرَضٌ) وMALADIF (مُعْتَل أو مُعَرَّض للمرض) وMALDIVEMENT (باعتلال) ذات أصل عربي لعدة أدلة:

- 1- لا يُشتق من هذه الكلمة ممرّض (INFIRMIER) أو ممرضة (INFIRMIERE) .
- 2- يرسم صوت الضاد في الفرنسية دلاً، فاسمي «مرتاض» يكتب MORTAD في السجل .
- 3- ما كان ينطقه بعض الحجازيين «لاماً» يلفظه تميميون «راء»، فإذا قال الأولون: «لَعَمْرِي» قال الآخرون «رَعَمَلِي»⁽¹⁾،... وهذه المقارنة تحتاج إلى بحث مستقل، وإلى مختصين ضليعين في اللغتين .

5-2 رينان يتحامل على الساميات :

ومن تحامل على اللغات السامية، ومنها العربية، رينان الفرنسي، وكان أولى به ثم أولى أن يصلح متاعب لغته الفرنسية نطقاً ورسماً وتركيباً وصوتاً،... لماذا تجاهل هذا المستشرق بأن معرفة لغة من اللغات الشرقية صار أمراً محتتماً على كل أوروبي مثقف، «وأن الأفكار الشرقية ظلت سائدة منذ ظهور المسيحية والإسلام ثم مذهب التجديد الأدبي HUMANISME إلى غاية القرن السابع عشر أم يريد أن يَسِمَنَا بما وَسَمَهُم به أرسطو «إن غير اليونان من الأوروبيين غير مستعدين للحضارة»؟⁽²⁾ أما كان حرياً به أن يفتح قاموسه الفرنسي الذي يضم في باطنه مائات من الكلمات العربية «في الأطعمة والأشربة والأكسية والألوان والاصطلاحات المتصلة بقص الشعر ومشطه وتسريحه وصناعة الملابس؟ ألا يعلم مثلاً أن مصطلحات الري في اللغة الإسبانية

1 - راجع المظهر، 2/ ص: 277 .

2 - مجلة «اللغة العربية»، ص: 207 عدد: 9، سنة 2003 .

جَارَة لغته هي تقريباً كلها باللغة العربية؟»⁽¹⁾، وهل جهل أم تجاهل رينان بأن «أغلب المفردات العربية الثقافية والاجتماعية والحضارية والفلسفية والعلمية،... التي أخذت طريقها إلى اللغة الفرنسية التي كانت حتى ذلك الوقت في طور النشأة والنمو عبر اللغة الإسبانية»⁽²⁾. لسنا هنا في مجال الرد على هذا المستشرق المتعصب لكل ماهو آريّ لدحض مزاعمه الواهية من كل رؤية موضوعية صادقة، ومع ذلك يجب أن لا نقع في الفخ نفسه، أي هذا لا يمنعنا من الإشارة العابرة هنا «إلى أن اللغات كلها لها خاصية الاشتراك والفضل فيما تأخذه وتعطيه وأن الحضارات الإنسانية وليدة أعمال وإنتاجات عقلية وفكرية متفاعلة ومتلاحقة، فالأرقام العربية التي ماهي في جوهرها إلا معانٍ كاملة ومفيدة لشبكات لا نهائية من المداليل الكامنة في معدوداتها، قدّمت فضلاً علمياً لا يُردّ للإنسانية»⁽³⁾.

3-5 انسياب العربية بين الشعوب :

وبعد أن فرضت اللغة العربية رهانها الداخلي عَرَبِيّاً أمام إبداعاتها، والتعبير عن مكوناتها الفنية البعيدة، والتي لا ساحل لها، وبعد أن تكيّفت مع نظم القرآن وأسراره وعجائبه ومعجزاته المادية والتجريدية، وإشاراته الكونية والغيبية والعلمية، بعد كل هذا وغيره، وجدناها تنساب انسياباً بين نفوس وعقول أمم وشعوب أقبلوا عليها حباً وكرامة، ولغاتهم الطبيعية لم تكن بأقلّ من لغتهم الجديدة رقيّاً ولا حضاريّاً، لا شيء سوى لتشوّقهم العقديّ والروحي لتلاوة كتاب الله مبنّى ومعنى دون واسطة ولا ترجمة، وهكذا أقبلت عليها ألسنة تلوّكها لو كما لم نعلم أن أعجميّاً اشتكى منها صعوبة، ولا اعترضه في سبيل تعلّمها عقبات، بل كنت تراه يقبل عليها إقبال الفصيل على ضرع أمه، وشيئاً فشيئاً أصبح هذا الأعجمي يفوق غير واحد من أربابها وعلمائها والآخذين بناصيتها، ولنا مثال ناصع، لا يقبل الجدل في الشاب العبقرى سيبويه الذي نهض بها نهوضاً لسانياً أعجز به من تقدمه، وتحّدّى به من لحقه.

4-5 بداية التعريب :

كان على اللغة العربية أن تصفّى حسابها عَرَبِيّاً، وتثبت وجودها الوظيفي في كل قطاعات الدولة العربية الإسلامية ودواليبها قبل أن تلتفت لاستيعاب علوم الأمم التي تعانقت معها روحياً أو تواصلاً مصلحياً، وكان لها ما أرادت منذ العهد الإسلامي المبكر، حيث عُرّبت سكة النقود

1 - نفسه، ص: 207.

2 - الحضارة العربية في إسبانيا، ص: 115-116 بروفنسال.

3 - مجلة «اللغة العربية»، ص: 208 عدد: 9 عام 2003.

تعريباً خالياً من أي تأثير مسيحي⁽¹⁾، والفضل الأعظم يذكر هنا لعبد الملك بن مروان الذي أقدم على التعريب في جميع مرافق الدولة، بما فيها النقود التي أمر بإزالة شعار التثليث المسيحي من القراطيس غير عابئ بغضب جستنيان الثاني ولا بهداياه الفاخرة، الأمر الذي جعل كارل بروكلمان يقرّر أن استئناف البيزنطيين للأعمال الحربية يعود أحد أسبابه إلى الإصلاح الذي أحدثه عبد الملك⁽²⁾.

وكانت اللغة العربية التي تدوّن بها الدواوين قبل عبد الملك، من الدرجة الثانية، غير أن هذا الخليفة بعد تعريبه الدواوين الخمسة رفع من شأنها، وأصبحت لغة من الدرجة الأولى، حيث أصدر أوامره إلى جميع عمّال الأقاليم الشاسعة بتنفيذ مهمة التعريب الشامل، ليشرف هو شخصياً على عملية التعريب في بلاد الشام⁽³⁾.

5-5 العربية ذاكرة الحضارة الإنسانية :

وكان وعداً على رهان العربية التي غادرت وكرها البدوي والريفي والصحراوي أن تتقاطع وتتعانق مع لغات حضارية راقية، فعملت على أن تحوّلها وتتألف معها ومع متكلميها إرادياً، وتتجاوب مع حنينهم وتطلعاتهم، بدل أن تتصارع معها أو تُقَصِّصها، مما سهّل لها استيعاب كل الحضارات والثقافات الإنسانية من أقصى آسيا شرقاً إلى أقصى أوروبا جنوباً في ظرف قياسي، لولا صحته والدلالة الحية عليه، لعدّ من رجم الغيب ونسج الخيال، ولم تقف مشدوهة أمام ما ترجم إليها من ثقافات متقدمة عريقة وتنوع، بل استوعبت النصوص المترجمة إليها من مختلف اللغات العربية والشرقية، فهضمت، ووسّعت، ورقّته، ونقّحته بزيادات شهدت به الحضارة الحديثة، بل أمست القنطرة الرابطة بين ثقافة توارت أو كادت وثقافة أخرى ولدت، وهي بهذا تستحق أن تكون شبه ذاكرة حضارية جماعية للإنسانية كلها جمعاء، علماً بأن أحداً لم يتبنّها بقوة خارجية قاهرة، بل كما ذكر بارتولد (مستشرق روسي) أن انتشار اللغة العربية في الأقوام غير الإسلامية أمر « لا ترغب فيه الحكومة كثيراً، فمُنِعَ تكلم النصارى اللغة العربية، وتعلّم أولادهم في مدارس المسلمين، ورغم هذه الحال صار الإسلام ديناً رغب فيه أكثر الشعب، واتخذت الشعوب غير المسلمة اللغة العربية لغة لها، ويمكن تفسير رواج اللغة العربية هذا الرواج بأن العرب لم يعتمدوا على قوة السلاح فقط كالجerman والمغول والإيرانيين القدماء، ولكنهم أنشأوا منذ القرن السابع الميلادي لغة أدبية متقدّمة في ساحة الفكر تقدماً واضحاً⁽⁴⁾».

1 - ينظر تطور النقود العربية الإسلامية، ص: 22 محمد باقر الحسيني .

2 - انظر تاريخ الشعوب الإسلامية، 1/ ص: 162 كارل بروكلمان .

3 - ينظر تعريب النقود والدواوين، ص: 106 د. حسّان علي حلاق .

4 - تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص: 78-79 .

5-6 العربية ورهانها العلمي المتجدد :

ومنذ عهد العربية المتقدم لم تجتزئ بالتعبير والدلالة على أصول اللغة والفقه والتفسير والمصطلحات الفلسفية والكلامية والأدبية والنقدية والفنية والجمالية،... وما إلى ذلك من مصطلحات إدارية وقضائية وبريدية،... بل تعدت ذلك إلى حقول علمية صرفة مثل التشريح والأمراض والأدواء والأدوية المفردة (نباتية أو معدنية أو حيوانية)، والأدوية المركبة، وأوزان الأطباء، ومكاييلهم، ومصطلحات الكيمياء، والحساب والعيارات وأنواع من الصناعة وعلم الجيل (الميكانيكا)،... علماً بأن العربية كانت مهية قبل الإسلام إلى قدرتها للتعبير دون وهن ولا عجز على ما عبّرت به وعنه، نقول هذا حتى لا يفهم منا أن عربية ما قبل الإسلام كانت «عربية راکدة أو في مأمن من أي تحول دلالي في دال بعينه، فعربية ما قبل الإسلام كانت أكثر حرية وحركة من عربية ما بعده، لم تكن مقيدة بكتاب، ولا سنة، ولا شريعة، ولا إدارة، ولا قضايا علمية منضبطة انضباطاً، ومقعدة تقعيدياً،... ولكن مجال تحركها وتحررها كان مجالاً أضيف في جاهليتها منه في إسلامها... إن عربية ما قبل الإسلام ظلت تلتزم بتحولها الدلالي المذهل والمحير من مدلول إلى مدلول تعبيراً بدال واحد...»، ومصطلحات الآبار والمياه التي كان يتداولها العربي تداولاً حياً ملموساً تقفك على عجب عجاب، لا أحسب أن مصطلحات السقي وحفر الآبار ومداواة المساه وما إليها من أدوات ميكانيكية تشمل عليها أحدث لغة حية في هذا المجال الذي يحتاج فقط إلى الاستعمال.

وإذا أردت أن ترثي راهن اللغة العربية التي آلت إلى الانكسار والانتحار، وهي تعيش العقد الأول من الألفية الثالثة، وألفيتها السابعة تاريخياً، فحسبك أن تتصفح بعضاً من كتب «خلق الإنسان» و«خلق الحيوان» ونماذج من كتب «الفرق»، وهي كتب ظهرت في القرن الثاني الهجري!،... لتفقد صوابك ذهولاً وجنوناً كيف أن هذه اللغة غير معمم استعمالها عربياً إدارياً وجامعياً، ومخبرياً، وصناعياً، وحتى دبلوماسياً؟!!

5-7 الحرف العربي وتأثيره في لغات عالمية :

ومما هو غريب حقاً أن عرباً دعوا في فترة من الفترات إلى كتابة العربية بحروف لاتينية، ولئن فشلت دعواهم فشلاً ذريعاً وتلقائياً من كل الفئات الشعبية على مستوى الوطن العربي، مثلما أخفقت صيحاتهم إلى استعمال العامية مكان الفصحى تأثراً بما حدث للغات الأوروبية التي انقسمت على نفسها إلى لهجات ما لبث أن تطور كل منها لاحقاً في بلد أوروبي على حدة إلى لغة أدبية وعلى أنحاء مختلفة فيما بينها، فإن طوائف وطنية محلية في بعض البلاد العربية تدعو إلى رسم لغتها المحلية التي يختزن قاموسها اللغوي أكثر من خمسين في المائة من

الكلمات العربية، بالرسم اللاتيني، ولكن عناصر ثقافية وطنية من ذات اللغة والمحل تعارض بقوة هذه الأطروحة ذات الجذور الاستعمارية لأغراض لا تحتاج إلى بيان.

إن اللغة العربية أثّرت في سبع وثلاثين لغة اتّخذت حروفها، رغم تباين هذه اللغة سلاله وفضاء وأعراقاً⁽¹⁾، بل الشركة التوراة البريطانية والأجنبية التي مركزها في لندرة، طبعت الإنجيل في جميع تلك الألسن بالحروف العربية⁽²⁾، وأكثر هذه السبع والثلاثين اقتباساً «للكلمات العربية هي الإيرانية والتركية والهندستانية وأشباهها، فإن قاموس كل منها حافل بآلاف من ألفاظ لغتنا، بحيث لا يكاد يمكن العثور على جملة طويلة في تلك الألسن لا تحوي عدة عناصر عربية»⁽³⁾، ولنا أن نعرف بضع مئات من الكلمات التي دخلت أكثر لغات أوروبا البالغ عددها ثلاثة وسبعين على الأقل، وهذه اللغات نفسها تقرّبها، ولا يكاد يعرفها إلا فقلّغيو (فقهاء اللغة) هذه اللغات، لأن عناصر منها تشوّهت تشوّهًا بعيداً عن أصلها العربي، ويبلغ هذا التشوّه الصوتي درجة متفاوتة بين كل لغة وأخرى، بسبب تباين رجوع هذه اللغات إلى أرومات مختلفة.

5-8 العولمة الفضائية للعربية القديمة :

وإذا سلّمنا تاريخياً بأن العربية القديمة مرتبطة بلغة بدو الآراميين التي تفرعت إلى بابلية وآرامية وسبئية إلى جانب لغات عرب الحجاز بما في ذلك لغة صدر الإسلام⁽⁴⁾، فإن هذه اللغة (الآرامية) صارت حول سنة 500 ق.م اللغة الرسمية في كل بلاد الشرق الأدنى القديم، بل جعل الفرس هذه اللغة لغة دبلوماسية لهم⁽⁵⁾، لأن بعض فقهاء اللغة يقدر مساحة البلاد الناطقة بالآرامية في المدة المحصورة بين سنتي 300 ق.م و650 بعد الميلاد بحوالي ستمائة ألف كيلو متر مربع⁽⁶⁾، وهذا عين ما ذهب إليه رينان المتحامل على العربية وأخواتها الساميات من أن الآرامية في القرن السادس قبل الميلاد طمست كل اللغات التي كانت قبلها، وأصبحت وحدها اللغة الأولى خلال أحد عشر قرناً⁽⁷⁾، وكانت على عهد السلوفيين سائدة في سورية وما بين النهرين وبلاد الكلدان والعراق وجزيرة العرب⁽⁸⁾.

1 - راجع غرائب اللغة العربية، ص: 124 الأب نخلة اليسوعي .

2 - نفسه، ص: 124 .

3 - نفسه، ص: 126 .

4 - العرب قبل الإسلام، ص: 85، جرجي زيدان .

5 - غرائب اللغة العربية، ص: 170 .

6 - فقه اللغة، ص: 51 صبحي الصالح .

7 - فقه اللغة المقارن، ص: 247 إبراهيم السامرائي .

8 - فقه اللغة المقارن، ص: 247 .

وبناء على الإشارة السابقة، فإنه مما يبدو «أن وجود الآرامية في هذه الأنحاء الشاسعة من الأمصار لم يكن مرتبطاً بوجود الآرميين أنفسهم، ولكنه يدل على تفاعل سابق بين أهلها ومن اتخذوها لغتهم الرسمية، والأدلة الحديثة نفسها تؤيد هذا، فوجود الفرنسية في بلد ما من العالم اليوم لا يدل على وجود الفرنسيين أنفسهم،... كما يدل في الآن ذاته على مدى تأثير هذه اللغة في جميع بلاد الشرق الأدنى القديم، بما في ذلك الدول ذات الحضارات الخالدة كالشعب الساساني، ولكنها كانت منتشرة في البوادي بقدر ما كانت سائدة في المدن والقرى والبلاطات والسقارات⁽¹⁾، ومن أجل انتشارها بين البوادي الآرميين، أطلق على من كان يسكن بالحضر من الآرميين اسم الآرميين، وعلى من كان يقطن بالبادية منهم اسم «بدو الآرميين»⁽²⁾.

5-9 ثراء اللغة العربية وتفاعلها :

وإذا كانت إحدى سنن أية لغة أن تأخذ وتعطي، والعربية ليست بدعا من ذلك، وأن الفقلغيين المقارنين يرجحون دخول ثلاثة آلاف كلمة أجنبية في اللغة العربية، فإن هذا الدخيل من الكلمات التي تعود مائات منها إلى لغات سامية -أي عربية أصلاً أو نسباً- فإن قواميس اللغة العربية أثري وأغنى من هذا العدد الدخيل الضائع لكسيكياً وسط ملايين من التراكيب، وعشرات الآلاف من الكلمات المفردة، فهذا الصحاح «يضم أربعين ألف مادة، والقاموس ستين ألف مادة، والتكلمة ستين ألفاً، واللسان ثمانين ألفاً، والتاج عشرين ومائة ألف مادة»⁽³⁾، ولكن لا أحد من نوابغ العرب يحتاج في استعماله إلى أكثر من بضعة ألوف أو آلاف، فعباس محمود العقاد الذي ألف أكثر من ستين كتاباً في مختلف الفنون والعلوم الإنسانية والآداب والسير... لم يستعمل أكثر من عشرة آلاف من الكلمات⁽⁴⁾.

ونجد الأب رفئيل نخلة اليسوعي العالم الجليل الذي كانت له صولات وجولات مقارنة بين العربية وغيرها من اللغات العالمية القديمة يُنحي باللائمة على ورثاء لسان العرب المعاصرين الذين أبدوا نفوراً مفرطاً من إغناء العربية باقتباس الكلمات الناقصة فيها من لغات الحجم مشيداً بالغربيين الذين لا يتحرجون في استيراد كلمات وإدخالها في قواميسهم الناقصة منها «أما نحن فقد خفنا خوفاً غير معقول من تشويه لغتنا باقتباسهما، فسمينا التلغراف برقاً، والتلفون هاتفاً، وهما إسمان مبهمان لا يدلان على المعنيين المقصودين دلالة واضحة فعسى أن نفتدي برحابة عقل العرب الأقدمين وبغيرتهم الفطنة على لغتهم، فنغنيها، كما فعلوا، بآلاف كلمات أعجمية نفرغها على مثالهم في قوالب، لصيغ العربية بقدر الإمكان»⁽⁵⁾.

1 - الفوارق النحوية بين اللهجات العربية الفصحى، ص: 34 (رسالة ماجستير 1982 جامعة الجزائر).

2 - راجع مولد اللغة، ص: 43 أحمد رضا.

3 - مقدمة الصحاح، ص: 23-24 أحمد عبد الغفور عطار.

4 - السابق، ص: 25.

5 - غرائب اللغة العربية، ص: 286.

وإذا كنا نفضل ألا ندخل في حاجة مع هذا الباحث الكبير بشأن الترجمة والتعريب هنا، وهذا موضوع آخر، فإن الإشكال عندنا نحن معاصر اللسان العربي لا يكمن، في تقديري، في اختلاف القوم بين ترجمة وتعريب، حتى وإن كنت أفضل التعريب قبل الترجمة، بل في انعدام الممارسة الحية، والاستعمال لمثل هذه الكلمات التي يصعب على أحد أن يجزم تعسفا بأنها ناقصة من قواميسنا أو منعدمة فيها، قد تكون ناقصة أو منعدمة فيها دوال لا مداليل، لكن من ذا الذي يغوص في أحشائها ليصيد منها هذه الدّرر من المداليل؟ ما الذي منعنا من الوضع أو النحت أو القياس أو الاشتقاق أو التعريب ثم الترجمة؟ إن الذي حرّمنّا من ذلك فعلا التعبير بعربية لا قديمة كل القدم، ولا حديثة كل الحداثة، عمّا يخترع، ويبدع حولنا من مسميات ومواليد جديدة في كل لحظة من حياتنا، وإذا ما قدّر للمعايير اللسانية الداخلية أن تعجز كلها، فلا أحد يقف دوننا لجوءاً إلى معايير لسانية خارجية للتعامل مع كل كلمة يحتاج لها استعمالنا الضروري لها، ولا أحد يمنعنا أيضاً لإخضاعها إلى نوااميس اللغة العربية وأصولها وذوق المتكلم العربي فيها.

وإلا، فإن اللغة بقدر ما هي متساوية مع نفسها تساوياً لا يعلو ولا يسفل عنها، فهي لا تُمنع تحت وطأة التسيب والإهمال والهجر،... من أصحابها المحسوبين عليها، من أن تتباين تبايناً أو تتقلص ضالة تبعاً لاستعمالات أصحابها الضنينة، فيضطر أصحابها إلى اقتراض استعمالات، واستعارة كلمات، ومصيبة اللغة لا تكمن في اقتباس وحدات لغوية أجنبية، بل في استعمالات بعينها حتى لو تضاربت قاعدياً مع أصول اللغة المقترضة.

عموماً، ليست هنا كلغة محصنة من دخول الدخيل فيها، فما دخل لغتنا العربية من كلمات أعجمية لم تصنف العربية بها لا يتعدى مداليل مادية أكثر منها تجريدية أو معنوية أو مجازية، وهو ما كان ينعدم فيها لانعدام عناصر ثقافية وحضارية، فكرية، فالعربي كان يعيش على البدهة والفطرة، وما إن جاء الإسلام، واتسعت الفتوحات واختلط بالأعاجم، حتى وجد نفسه مضطراً إلى نقل مظاهر حضارية لم يكن له بها عهد في جاهليته، غير أن تلك الكلمات لا تتجاوز حصة في المحيط الهادي.

وهناك لغات إذا جرّدتها مما غزا وعاءها الأصيل من كلمات أجنبية سُحقت سحقاً من الوجود، مما يدل على هشاشة ثقافة وأصالة أصحابها، فاللغة الألبانية مثلاً لا يوجد فيها إلا 430 كلمة من الكلمات المشتقة من الوعاء الأصيل لها، وأما الكلمات القاموسية الباقية، وعددها 4710، فكلها كلمات دخيلة مقترضة من لغات أخرى، واللغة الكورية التي تفتخر اليوم بكورنتها، وهو افتخار تُحسد عليه، اقتبست ما يقرب من 75% من جارتها الصينية، واللغة الانجليزية التي صارت معظم ألسنة العالم تلوّكها وتجتّر مخزون ذرات كلماتها ليست أصيلة إلا قليلاً في وعائها، إذا اقتبست ما بين 55 و75% من مجموع مفرداتها من اللغتين الفرنسية واللاتينية وغيرهما من اللغات الرومانية(1).

1 - راجع الأصوات والإشارات، ص: 92. كندراتوف.

5-10 العربية تكسب رهانها عولمياً :

ويمكن القول إن اللغة العربية تَعَوَّلَت دراسة وتعلُّماً وبحثاً مخبرياً وأدبياً ولسانياً وإنسانياً، تعولماً قديماً وقُروسطياً ونهضوياً بين غير العرب، إذ بعد سقوط بغداد مشرقاً وأفول نجم العرب جنوب أوروبا غرباً، ولربما قبل ذلك، التفت الغربيون، وعلى رأسهم علما، الكنيسة، إلى الاعتناء باللغة العربية لأسباب خارجية بيّنة، وما تأسيس مدرسة الدراسات الشرقية في طليطلة عام 1250م على أنقاض سقوطها عام 1085م إلا رغبة من الإسبان لتدريس اللغة العربية لترجمة المعارف العربية وسائر العلوم التي بحوزتها، ومن أجل الهدف ذاته قرّر مجمع فيينا الديني أن يؤسّس كرسيين على الأقل لتعلم لغات سامية، ومنها العربية في جامعات روما، وبولونيا، وباريس، وإكسفورد، وسلاسكا⁽¹⁾، وما انتخاب JELBERT DE ORIA (1003-933) حبراً أعظم كأول بابا فرنسي باسم سلفسترا الثاني إلا لكونه يتقن اللغة العربية وعلومها عربية أخرى، بل كان أوّل من بثّ الأعداد العربية في أوروبا فضلاً عمّا له من دراسة بالعربية ككتاب إقليدس⁽²⁾، ومنهم أيضاً قسطنطين الإفريقي (1087) وأدلرد أوف باث BATH الذي كان يفتخر بما تعلمه ممن وصفهم بأساتذته العرب على بعض خريجي الجامعات الإفرنجية، وروبرت أوف تشستر الذي نهض بأول ترجمة للقرآن العربية إلى اللاتينية مستعيناً بثلاثة آخرين⁽³⁾، منذ عام 1143م.

ومنذ عام 1609 نصّح يعقوب كريستمان (1613) الذي تعلم العربية من كتاب النحو العربي لبوستل بإنشاء كرسيّ للغة العربية بجامعة هايدلبرج، ولما جاء سكاليجر الذي يعد صاحب أول منهج استشراقي علمي خالف الرؤى السابقة القائلة بأن من يعرف العبرية يسهل عليه البدء في تعلم العربية موضحاً لمن خالفهم أن التعمق في العربية يحتاج إلى وسائل أخرى.

وزادت العربية انتشاراً، وتراثها توسّعاً وتعميماً في أوروبا كلها، بفضل ظهور أول مطبعة عربية (سنة 1580) طبع فيها بادئ ذي بدء الكافية لابن الحاجب، والآجرومية لابن آجروم، إلى جانب مخطوطات عربية أخرى، ولما ينقض القرن السادس عشر⁽⁴⁾.

ولعلنا لسنا في حاجة إلى المزيد من سرد الحقائق العلمية لهذه اللغة في الفضاء الأوروبي بأكمله، ولكنّ ما نحن بحاجة إليه أكثر أن نشير إلى أن اللغة العربية ما خبا نجمها بعد خبو سلطان أقوامها إلا ليسطع سطوعاً مشرقاً ظلت أوروبا تستنير به قروناً من الزمن، حيث أقبل عليها القوم يتعلمونها، ويعلمونها، ويؤلفون ويبدعون بها، ومنهم من أولع بها ولوعاً لا يُصدّق، ولكنه

1 - ينظر في رحاب اللغة العربية، ص: 180-181.

2 - نفسه، ص: 181.

3 - نفسه، ص: 181.

4 - مجلة المجمع العلمي العربي مجلد 40 ج: 2/ ص: 383-384 عام 1965.

لا يكاد يوصف، ومنهم الشاب يوهان يعقوب رايسكه (1774) الذي دخل حرم مكتبة ليدن وفهرس مخطوطاتها، وواظب على خدمة هذه اللغة خدمات ممتزجة بحب وشغف وإخلاص، ومهما أضفينا عليه من أوصاف، فإنها لا ترقى إلى ما وصفه به أحد أبناء وطنه (يوهان فوك): «وأخذه شوق لا يوصف وغير قابل القمع لتعلم اللغة العربية، لم يدر الشاب ما سببه، وعندما ابتداء بدراسته في جامعة لايبزج عام 1733 اختار مواضيع تحصيله مستبداً برأيه، وشرع في دراسة اللغة العربية بنشاط كبير، وتوفق في درس النحو العربي دون الأخذ بمعونة أي معلم ما مستنداً على موهبته الخاصة لتعلم اللغات فقط، وسعى أن يشتري كل ما وجد إذ ذاك في أوروبا من الكتب العربية المطبوعة رغم فقره المدقع وكونه في حاجة إلى ضروريات الحياة»⁽¹⁾.

علما بأن هذا العالم الشاب الذي أتى على مطالعة كل ما كان موجوداً من الآثار العربية المطبوعة منذ عام 1736 ولما يناهز العشرين، قال قولته الفصل: «إن أراد المرء أن يساعد على رواج دراسة العربية فعليه أن لا يدرسها كلاً هوتي»⁽²⁾ راداً بذلك على من كانوا يشترطون دراسة العبرية مدخلاً لدراسة اللغة العربية، وفاصلاً مرة واحدة بين اللغة كعلم لسانی من جهة، وما تعبر عنه من قضايا فلسفية ولا هوتية من جهة أخرى.

وأما رايسكه فيرى أن دراسة لغة سامية غير العربية لم يجلب له ثماراً إضافية عما هو موجود في العربية، ولما كتب أحد المستشرقين (شولتنس) مقدمة لكتاب النحو العربي الذي ألفه أربنيوس عام 1613، اعترض الشاب رايسكه على طريقة تلك المقدمة قائلاً: «لا يليق ذكر هذه المسائل المتعلقة بتفسير التوراة في كتاب يبحث عن النحو العربي»⁽³⁾.

وبإلقاء نظرة جغرافية شاملة على العالم القديم الذي عزز باكتشاف ملحقة الجديد، فإن العربية تمومت أول ما تمومت في الوطن العربي التقليدي، وضربت بجرانها في حواضره وأريافه ساعدها ذلك الإقبال الجارف ممن اعتنقوا الإسلام ديناً، أو ممن تعلموها لغة وظيفية خارج هذا الدين، فأسندت إليهم أرقى المناصب العليا في دواليب الدولة العربية الإسلامية، وفضلوا على شخصيات تتقنها سليقة، وتعتنق الدين الجديد.

عليك أن تمدّ بصرك على أطالس العالم لتراها في آسية كالهند، وإيران ابتداء من القرن السابع الميلادي، وبالوتشستان في القرن الثامن الميلادي، وتركستان ابتداء من القرن التاسع، ثم أفغانستان التي انتحل أهاليها الإسلام في العصر ذاته... وإذا بها تتوسع وتتمدد في مناطق وجزر نائية أخرى بخطها وألوف من كلماتها، وشدّ عضدها شداً محكماً في وقت امّحت فيه الهيمنة العربية كلياً أو

1 - مجلة فكر وفن، ص: 45.

2 - مجلة فكر وفن، ص: 47.

3 - نفسه، ص: 52.

جزئياً، التتر الذين انتحل الأتراك منهم الإسلام، والذين فتحوا مدناً روسية مهمة منذ عام 1226م، وظلوا مستولين عليها إلى سنة 1380م،... وكل لغة من هذه اللغات التي تجاوزت الثلاثين كانت تكتب بحظ محلي ما، ولكنها فضّلت الخط العربي لرسم لغاتها ولهجاتها، وهي تعلم سلفاً أن الحروف العربية لا تستوعب صوتياً كل متطلبات تلك اللغات، ولكنهم رضوا بها، وأضافوا إليها ما ينقصها من رسوم تترجم النطق المعتاد لأصواتهم الناقصة في الحروف العربية.

هل يمكن القول، ودون مسحة رومانسية، إن اللغة العربية كسبت رهان العولمة اللسانية القديمة؟ لعل ما ألحنا إليه لا يشكل إلا أمثلة مبتورة ومبعثرة، ولكن ما وقفنا عليه يدفعنا أن نميل إلى القول، وبكل اطمئنان، إن اللغة العربية كسبت فعلاً رهان العولمة القديمة التي تأسست على تراثها وأصالتها وجذورها هذه العولمة الجديدة ولئن كانت العولمة الجديدة موجهة ومسيّسة ووجبات مطبوخة على قدّ الذوق والمقاس اللذين ترغب فيهما الدول المسماة كبرى، فإن العولمة التي قادت اللغة العربية قروناً من الزمن من أقصى آسيا شرقاً إلى غرب أوروبا جنوباً لم تكن القاهرة ولا مجبرة إقليماً أو شعباً لاتخاذها لغة أو تبني خطها رسماً.

إن اللغة العربية ظلت صامدة تقاوم الزمن، وأصحابها أموات أو أشباه أحياء، إذا استثنينا المتون والمنظومات التي حلت محل غياب عملية الإبداع والخلق والتجديد، وبعد نهوضهم من كبوة طال سباتها وجدت نفسها ثابتة في قمته، وألّفوا أنفسهم بعيداً عنها في الحضيض يتراطنون برطانات هجينة وغريبة عن العربية الطبيعية التي سبق لها أن كسبت رهانها مع كل اللغات والثقافات والحضارات التي تلاقت معها بقوة لسانية أو طيبة خاطر، حتى أصبح البغدادي لا يفهم المراكشي، والخليجي لا يفهم الشامي، إلا إذا انتقل كل واحد من هؤلاء عن طبعه المحلي الهجين، وإلا احتاجوا -فيها يتواصلون به إلى مترجمين ماهرين لم يُنجبوا بعد.

أشرنا إلى ما أشرنا، لأنه في الوقت الذي اختفت فيه اللغة اللاتينية كلغة شعب وتواصل عام، لتسقط نهائياً وإلى الأبد بين الأباطرة إبان القرن الثامن عشر؛ أي بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية بثلاثة عشر قرناً كانت اللغة العربية سائدة في هذه الفترة، ولئن لم تكن لغة دولية بشكل علني، فإنها لم تكن تعد ذلك ضمناً، لأن كتابة المعاهدات السياسية والمعاملات التجارية ذات طابع دولي، وامتد كما أو مناً، نطاق استعمالها «حتى شمل مناطق شاسعة من الفلبين إلى المحيط الأطلسي، ومن آسيا الوسطى إلى أواسط إفريقيا، وأفادت اللغة العربية الشعراء والعلماء والمحاربين والتجار فائدة جمّة، إذ كانت هي اللغة اللاتينية بالنسبة لغرب آسيا وإفريقيا، وانحسرت سيادة اللغة العربية كلغة عالمية نتيجة نمو الوعي القومي ونشوء الأمم، إن لاتينية أوروبا، و«لاتينية» آسيا وإفريقيا ذبلتا كلغتين عالميتين في نفس الفترة التاريخية ولنفس الأسباب، وهي أسباب اجتماعية، وليست لغوية» (1).

1 - الأصوات والإشارات، ص: 139.

6 - عولمة المداليل اللسانية :

6-1 نتعلم لساناً محلياً أو كونياً؟

سبق أن ألمحنا عرضاً فيما مضى، ونحن نتحدث عن شمولية اللسان البشري، إلى أن نظرية لسانية لا تُماحك نظيرة لها، بأن الوظيفة الأساس للغة هي التبليغ والتواصل في قوالب تحتية تكاد تكون مشتركة بين معظم التخاطبات البشرية المتشابهة في أغراضها وكوامنها وأوامرها ونواهيها وتطلعاتها، وأفراحها وأتراحها، وطموحاتها وغرائزها،... بيد أن كل لغة من هذه اللغات تختلف عن نظيرتها في أداء ذلك جميعاً بطرائقها التي تلتصق بها، واختلاف الألسنة يبرز من هنا، لا فيما تعبر عنه، فاختلف الألسنة مثل اختلاف ألوان الناس، أي الألوان لا تعبر عن الإنسان، فالذي يعبر عنه ما يجمع ذوي الألوان المختلفة من إنسانية واحدة، أي المداليل الكونية تكاد تكون مشتركة، لكن أدائها متباين بتباين الأصوات من حيث كثرتها أو قلتها، بل هي متعددة ومتباينة إلى ما لا نهاية.

إننا نتعلم لساناً كونياً يشمل كل العلامات الممكنة مع فروق طفيفة، فالمخترعون العباقرة، والأدباء الفطاحل كان بإمكانهم أن يخترعوا ما اخترعوا ويبدعوا ما أبدعوا، حتى لو كانوا يتكلمون لغة غير اللغة التي تم بها اختراعهم بإبداعهم، وذلك بسبب أن «ظاهرة بعينها من ظواهر العالم تتخذ لها اللغات المختلفة مسميات مختلفة... فاللغة الروسية مثلها في ذلك مثل اللغة العربية، تتضمن كلمتين مختلفتين للدلالة على «أخ» و«أخت» ولكن لغة المجر لا تميز بينهما... وتجمع لغة أهل الملايو بين الإخوة والأخوات تحت اسم شامل هو «سودارا»... تدل الأسماء عادة على أشياء، وتدل الأفعال على أحداث تقع في الزمن، وهذه قسمة مشتركة بين اللغة الروسية والفرنسية والألمانية والانجليزية ولغات أخرى كثيرة، ونحن نسير على منوال أكثر سكان أوروبا إذ تقسم العالم إلى مجالين: أشياء وأفعال، بيد أن هذه القسمة هي خاصية تتميز بها لغتنا، وليس العالم المحيط بنا، ذلك لأن العالم في حالة من الحركة الأبديّة والضرورة والتغير»(1).

ثم إننا لماذا نعتبر كلمات مثل «قلم» و«مداد» و«ورقة» و«حرف» و«خط» و«بنت» و«أخ»،... تمثل أشياء لا أحداثاً؟ لا جواب لأحد يقنعك به خارج المتافيزيقيا، وكل ما في الأمر أن ما نستفسر عنه لا يعدو أن يكون الطريقة التي صنفت بها لغتنا العالمية التحتية، لكن هل بإمكان أحد اليوم أو غداً أن يُوَهَبَ الجرأة أو السلطة القاهرة على تصنيف العالم تصنيفاً على نحو مختلف؟ قد يكون الأمر سهلاً للإقدام على ذلك، ولكن ما من أحد يعتنق تصنيفك الجديد،

1 - الأصوات والإشارات، ص: 62 - 63.

لأن العالم لا يتغير، إن تغير، إلا بنفسه، وليس من غيره، حتى وإن وجدنا « اللغات المتباينة تعكس العالم الذي حولنا على نحو مختلف، بل إن المفاهيم العامة الأبدية مثل الزمان والمكان اتخذت مسميات مختلفة في اللغات المتباينة، ويكشف لنا كل هذا عن أوجه الاختلاف في الدلالة على الأشياء والألوان والظواهر والخصائص المميزة، وهذه حقائق أكدها علم اللغة، ولا سبيل إلى دحضها، بيد أن الحقائق يمكن تأويلها بطرق متباينة» (1).

يحدث هذا، لأن كل لغة ولها ميتافيزيقيتها الخاصة على نحو باطني يتجلى في أصحاب اللغة الطبيعيين دون أن تكون لهم القدرة أو حتى التساؤل بشأنه، وهم يتواصلون «إن الناس لا يعيشون فقط في نطاق عالم الأشياء الذي يحيط بهم، وفي نطاق عالم الحياة الاجتماعية، بل يعيشون أيضاً في نطاق عالم لغة الأم، إننا نبني العالم الذي يحيط بنا وفق «عالم اللغة»، وفي كل لغة، على تعبيره هو، تتضمن بالإضافة إلى مفرداتها وجهات نظر وأحكام مسبقة ضد وجهات نظر أخرى» (2).

وإذا كان قول اللساني الأمريكي (ورف WHORF) السابق من أنصار الفرضية التي تتصور أن اللغة ذات علاقة سببية CAUSALE صعبة نظام يصور لنا العالم، فإن دي سوسور يذهب إلى أن الدال الذي نضيفه على الأشياء أو المسميات ليس حر الاختيار بالنظر إلى الفكرة التي سبق أن جسدها، أي الدال مفروض علينا فرضاً آلياً بالنظر إلى المجموعة اللغوية التي تمثلها، حتى وإن كانت هذه الأخيرة لا يمكن لها أن تمارس سيادتها على كلمة واحدة بسبب أنها متعلقة باللغة بما هي عليه، أو لأن الأمور حدثت بهذا النمط وليس بسواه «وحالة لغة ماهي دائماً نتاج عوامل تاريخية، وهذه العوامل نفسها هي التي تفسر ثبات العلامة، ونعني بذلك مقاومتها لكل تبدل اعتباطي» (3)، حتى وإن صرح الرجل يصرح بأن التفكير لا أثر له في ممارسة لغة ما، طالما أن أفرادها لا يشعرون إلى حد بعيد بقوانينها فإنه يعترف، مع ذلك، بأن المنظومة اللغوية آلية معقدة، ولا يمكن إدراكها بغير التفكير (4).

وإشارة دي سوسور أعلاه تكاد تتفق مع ما حدث في لسانياتنا العربية القديمة، حيث نبغ فيها الأعاجم نبوغاً فاق أصحابها السليقيين في التعقيد والتأليف، لأن هؤلاء العلماء المتعربين كان شعورهم باللغة العربية أكثر حضوراً وتماثلاً منه لدى العلماء الأصلاء في هذه اللغة جبلة.

1 – الأصوات والإشارات، ص: 65.

2 – نفسه، ص: 66.

3 – محاضرات في الألسنية العامة، ص: 93-94.

4 – نفسه، ص: 95.

واللساني دي سوسور لا يقرّ بحرية اللغة، لأنه لا يكفي في حسابه أن تكتفي بقول مثل «إنها نتاج للقوى الاجتماعية، بل ينبغي أن نزيد على ذلك أن هذه القوى الاجتماعية تعمل بفعل الزمن وتبعاً له، متذكّرين أنها دائماً إرث لهم سابق»⁽¹⁾، ذاهباً، فيما ذهب إليه، إلى أن تضامن أصحابها مع الماضي يجعل حرية أي اختيار تفشل دائماً «ومن يزعم تأليف لغة ثانية يأخذ خلفه بها، فإنما يشبه الدجاجة التي تُرْخم على بيضة بطة، فاللغة التي يخلقها ستذهب طوعاً أو كرهاً بالتيار الذي يجرف اللغات كافة»⁽²⁾.

وأما العلامة همبولدت HUMBOLDT فكان يرى أن لغتنا هي التعبير عن الشكل الذي بمقتضاه يرى الفرد العالم ثم ينقله إلى داخل نفسه مؤكّداً على المظهر الاجتماعي للغة التي تعكس عادات الفكر الجارية للشعب الذي يتكلمها، ومن ثم فإن اللغة شرط لا مناص منه لرؤية العالم من قبل الناس الذين يستعملونها، وهذه الرؤية تمثل الشكل الداخلي للغة، وأما البنية الصوتية والسانتكية فليست أكثر من شكل خارجي لها، بل كان ممن أكّد على أن اللغة ضرب من الملكة الفطرية أو قوة «داخلية خاصة بالفكر الإنساني حتى وإن كان الإنسان عاجزاً على سبر أغوارها بسبب أن الإنسان واللغة قد خلقاً معاً مؤيّداً ما ذهب إليه نظيره الألمان فرانتزوب وشليغل من أن الإنسان البدائي دفعته طاقته الفطرية العجيبة الخلاقة إلى إبداع اللغة دفعة واحدة»⁽³⁾.

وكان اللغوي الأمريكي إيوارد سابير يرى أن «ثمت قسمات صوتية متميزة تنتشر على نطاق مساحات واسعة من العالم بغض النظر عن مفردات اللغات المختلفة وأبنيتها»⁽⁴⁾، غير أن كل لغة «تستخلص لنفسها من بين العناصر الصوتية الأصوات التي تحتاج إليها في بناء نسقها من الفونيمات، ونجد أقل عدد من الفونيمات في لغات بولينيزيا ولغات من أستراليا الأصليين، إذ يتراوح عددها ما بين 12 و15 فونية، وتشتمل لغة هاواي على سبعة أصوات ساكنة فقط وخمسة أصوات متحركة، وتشمل اللغة الروسية على خمسة أصوات متحركة و35 صوتاً ساكناً، وتتضمن بعض اللغات القوقازية عدداً قياسياً من الفونيمات يزيد على سبعين فونية»⁽⁵⁾.

ومما أدهش العلماء أن وجود آلاف من الأنساق الفونولوجية تتخللها قسمات صوتية متميزة منتشرة عبر مساحات شاسعة من عالمنا اللغوي بغض النظر عن مفردات اللغة المستعملة وأبنيتها، وتوصلوا إلى أن اثني عشر عاملاً يكفي لبيان الفروق بين عشرة آلاف فونية، أي ثمت اثنا عشر زوجاً من الفوارق أو عوامل التمايز تشترك فيها كل لغات العالم⁽⁶⁾.

1 - محاضرات في الألسنية العامة، ص: 96.

2 - نفسه، ص: 99.

3 - ينظر التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، ص: 114-116.

4 - الأصوات والإشارات، ص: 188.

5 - الأصوات والإشارات، ص: 187.

6 - يراجع المرجع السابق، ص: 188-189.

6-2 العربية والعولمة :

وقد يتساءل متتبع هذا العمل عن علاقة ما أثّرناه هنا وفي بدايته عما يسمى باللغة الكلية أو المشتركة في أشياءها ومسمياتها العامة بين الناس، وتساؤله خامرنا، ونحن نعرج على هذه النقطة، إلى درجة أننا كثيراً ما بقينا نجول بفكرنا في مثل هذه القضايا الشائكة دون أن نجرؤ على تدوينها، وبعد تردد طويل، رجح يقيننا على شكنا، وإقدامنا على ترددنا، ورأينا أن إثارة كل ما يتعلق بالعولمة اللسانية الطبيعية لا يعدّ غريباً ولا انحرافاً عن اللغة العربية ورُهنها أمام موجة العولمة الشرهة التي بدأت، وخاصة منذ نهاية الثمانينيات، من القرن الماضي، تلتهم الأخضر واليابس، لتتحول مع نهاية هذه العشرية التي تعدّ أسود عشرية في تاريخ البشرية إلى شبح من تلك الأشباح الوهمية التي كانت جداتنا تؤدّب بها المشاكسين منا حتى نستسلم إلى النوم، ودون إزعاج.

يجب ألا نبحت اللغة العربية بمعزل عما يحيط بها، وعما قد تتلاقى فيه كلغة إنسانية فرضت عالميتها الثقافية والعلمية والحضارية ردحاً طويلاً من الزمن، فهي لغة لا تختلف لسانياً عن أية لغة راهنة اتسع أو تقلّص استعمالها، ولكنها من حيث وظيفتها المادية والروحية، فإننا لا نبالغ إذا قلنا إنها تتميز عن ألوف من هذه اللغات واللهجات لكونها تغطي مساحة أوسع من أية لغة أخرى من حيث تواجدها، لا من حيث كثرة استعمالها.

إن اتحاد الألسنة البشرية في بنياتها التحتية التي تعبر عنها كل لغة ببنية سطحية متباينة لا يغرنّا بالعولمة القول إن لغات تنقرض أو تنكمش، وأخرى تسود بعد فترة وجيزة من الزمن، وربما يسوّل لغير واحد أن يحصر الباقيات الصالحات منها في ست لغات، ومن حسن حظ العربية أنها ستبقى حية ومستعملة بجانب الخمس لغات الأخرى.

ومما قرأته، وأنا أراجع هذا العمل، أن جمعية عالمية أكاديمية تُعنى بالحفاظ على اللغات والعمل على عدم اندثارها، ذهبت إلى أن « ما بين نصف و90% من لغات العالم قد تندثر بنهاية القرن الحالي »، وقال أحد أعضائها « إنّ الجيل الأخير قد يشهد اندثار معظم لغات القبائل في العالم »، وتسعى هذه الجمعية حالياً للاحتفاظ بحوالي خمسمائة وألف لغة على الأقل تواصلها بها مع الأجيال اللاحقة.

وذكرت صحيفة سان فرنسيسكو كرونيكال أن الجمعية ذاتها تضم لغويين عالميين « يتكلمون لغات بلادهم الأصلية، وتعمل تحت إطار «برنامج روزيتا» بالتسيير مع مؤسسة «لونغ نافا ونديشن»، وسوف تحتفظ الجمعية بهذه المعلومات داخل خمس كرات زجاجية « قطر كل كرة سبعة سنتيمترات وزيادة بقليل، بحيث تحتوي على خمسة عشر ألف صفحة دوّن فيها معلومات عن اللغات المحتمل انقراضها، وهذه الوسيلة تضمن الحياة لما يزيد عن ألفي عام لهذه اللغات المعرضة للاندثار، حسب ما تذهب إليه هذه الجمعية.

6-3 العولمة الثقافية عادلة أم ظالمة؟

والغريب أن الشعوب التي ستتضرر أكثر من هذا المصطلح الأيقوني الجديد، غدت تبشر بالعولمة أكثر من صانعي قرارها إما هراء، وإما استسلاما، وإما ضلالاً: «ولا يوجد أي خيار أمام الشعوب بعد أن انهارت السدود، وانمحت الحدود، ومن يقف متردداً أمام بوابة العولمة يُلفظ لفظ النواة، وأبادر إلى القول: إن العولمة ظاهرة إيجابية، وتعدّ خطوة نوعية جديدة في تقدّم المجتمع البشري رغم جوانبها السلبية، ورغم الوعي بأن ضرر النتائج السلبية سيصيب المجتمعات السائرة في طريق النموّ أوّلاً بالذات» (1).

وهناك من يعدّ العولمة الإطار المرجعي لكل الدراسات الاجتماعية والإنسانية بعد بروزها خلال عقد التسعينات، وبقدرة قادر تحولت في ظرف قياسي إلى قوة ضاربة، ولا أقول الرئيسة، التي تقود البشرية إلى التنافر، والتناحر، ولربما إلى تكميم الأفواه، ومنع رثائنا من التنفس،... ويبشر لها باحث آخر بقوله: «وأصبح من الواضح أن معظم التحولات الاقتصادية والسياسية والعلمية والثقافية المذهلة والمتسارعة التي يشهدها العالم هي إمّا سبب من أسباب العولمة، أو أنها مجرد نتيجة من نتائجها الضخمة والعميقة،... لكن في الوقت الذي يتجه فيه الكل نحو العولمة، فإن البعض يبدو مندفعاً نحوها بسرعة فائقة، ومن دون تردّد، وبحماس ما بعده حماس، في حين أن البعض الآخر يبدو وكأنه يحبو نحوها ببطء شديد، وبتردد، وربما يتخوّف، وبخطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء» (2).

إن العولمة الثقافية عولمة استبدادية ففي ثوبها الاستهلاكي الجديد، لا تقوم على التنوع الثقافي إلا كما تقوم على التنوع الاقتصادي، وهما تنوعان غائبان بل منعدمان عندها، ما دامت ترى أن «العولمة الثقافية تعني انتقال تركيز اهتمام ووعي الإنسان من المجال المحلي إلى المجال العالمي، ومن المحيط الداخلي إلى المحيط الخارجي، ففي ظل العولمة الثقافية يزداد الوعي العالمية العالم وبوحدة البشرية، وستبرز بوضوح الهوية والمواطنة العالمية التي ربما ستحلّ تدريجياً به—وربما المدى البعيد— محلّ الولاءات والانتماءات الوطنية، الإنسانية ستتعوّد النظر إلى ذاتها ككتلة واحدة ذات مصير واحد، وبقاء وفناء واحد، وتشارك مع بعضها البعض في قيم عميقة تتخطى كل الخصوصيات الحضارية والثقافية، ففي ظل العولمة الثقافية يكشف الإنسان بعده العالمي، ويتعرف على هويته الإنسانية أكثر من أي من وقت آخر» (3).

إن نصوصاً كثيرة قد حُبّرت حول ما يسمى بالعولمة، بعضها يتسم بالتشاؤم والنفور، وبعضها الآخر يتصف بالتفاؤل والتبشير، وإذا أردنا أن نكون وسطيين، فإننا لا نسد نوافذنا

1 – الحبيب الجنحاني، عالم الفكر، مجلد 28 ع: 2 سنة 1999، ص: 10.

2 – عبد الخالق عبد الله، المرجع السابق، ص: 40.

3 – نفسه، ص: 77.

الوطنية والإقليمية أمام ما يأتينا من أصوات تاريخية، لكن علينا أن نتحفظ تحفظاً شديداً في الإقدام عليها إقدام الصم أو العمي، سنجد أنفسنا ملزمين بالتعامل معها، غضبنا أم رضينا، لكن دون الارتقاء في أحضانها.

إن الشعوب المتخلفة ليس من مصلحتها إذا أرادت أن تحافظ على هويتها وتراثها الفكري والثقافي أن تتحمس أكثر من مستواها الاقتصادي والتكنولوجي في الإقبال على عالم العولمة الراهنة، وإلا وجدت نفسها ضائعة، ووجودها معرضاً للزوال، ذلك أن العولمة نفسها ستلفظها، لأنها تضيق بكل فئة تشعر بأنها عالة عليها.

إن العولمة واد من أودية جهنم تلتهم ولا تكون برداً ولا سلاماً على أحد، إنها تقوم على أن تمنحك كلما تضررت جوعاً سمكة، ولكنها لا تعلمك، ولا تسمح لك بأن تصيد بنفسك، إن العولمة في شكلها الهيمني الراهن تقود العالم إلى هوة مظلمة سحيقة، وإلى ضغائن بين الشعوب والأمم غير المتكافئة، ولن يكون لها خلاص إلا بتوقف الدول المهيمنة المالكة للذرة والمال والاقتصاد والتكنولوجيا والإعلام والفيتو.

لن يسمح عالم الألفية الواحدة والعشرين للعولمة من أن تكون من طرف واحد، على أربابها أن يكونوا إنسانيين إذا أرادوا لعولتهم أن تكون برداً وسلاماً على الجميع، على الناس جميعاً أن يتبنوا العولمة القرآنية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ هذه هي العولمة المتوازنة الرحيمة العادلة بين شعوب وقبائل، إلى جانب نصوص قرآنية ونبوية أخرى كثيرة تدعو إلى التوحيد بين الناس بغض النظر عن أديانهم وألسنتهم وألوانهم.

4-6 العولمة اللسانية تشابهاً وتبايناً :

إننا فعلاً نتوارث قواعد لسانية لا شعورية عبر الأزمنة والأجيال، وهذه القواعد في عمقها الضمني ليست متشابهة، ولكنها ذات قابلية تحتية مشتركة تعبر عن اختلاف بنياتها الصوتية الخارجية، وكان تشومسكي ممن ركز دائماً «على أوجه التشابه الخفية بين لغات العالم بصورة تفوق وجوه الخلاف المكشوفة لنواظرننا، فبرغم كون الأخيرة أوضح ظهوراً، لكنها تتميز بسطحيتها على نقيض التماثلات الأوغل في تسربها وانطوائها على الإثارة، والأشد قابلية مع الوقت لأن تلفت الانتباه حال كونها تعزز ما تعتقده بشأن عالمية اللغة»⁽¹⁾.

غير أن مصطلح الشمولية أو العالمية بقدر ما يشير إلى تماثل لساني ضمني ما، يضمّر في الآن ذاته معنى الاختلاف، إذ لا يوجد مخلوق يعيش خارج التنوع الذي يشكل سر وجوده

1 - محمد هليل، عالم الفكر، المجلد 27 عدد: 01 عام 1998، ص: 147.

المتميز وجوهره، ولذا فإنه في الوقت الذي « ينهمك عالم اللغويات في سبر غور لغة ما أو عدّة لغات تؤلف عائلة واحدة، بقصد استنباط قواعدها الخاصة، فإن (لايني) يجد سعيًا وراء اكتشاف أوجه الشبه الكائنة في خلفية اللغات أو العوائل اللغوية المختلفة، وهذا بالضبط ما يفعله علماء اللغة الجدد حين يعكفون على تحليل العمليات العقلية المتحكمة في لغاتنا المتداولة بحثًا عن القوانين العامة التي يستطيع تطبيقها - كما يأملون - على كل اللغات سواء ما عرف منها أم لم يعرف بعد »⁽¹⁾.

وعلاوة على الاستدلالات المشار إليها آنفًا بشأن العوامل المشتركة بين كل اللغات، فإن ما يستدل به اللغويون أيضًا أن جميع اللغات تشترك في فونية معينة تؤلف ما يسمّى العناصر الدنيا للكلام والتي تنشأ عن التركيب الفسيولوجي للفم والحنجرة، ويوردون مقاطع صوتية ساكنة وليّنة مقرّرين أنها مقاطع كونية ودليل من أدلة عموميات اللغة الإنسانية.

5-6 الكونية اللغوية والموسيقية ؟

ونجد ليونارد برنشتاين يقيم موازنة بين لغة الموسيقى ونظرية الأصل المشترك وعلم النحو التحويلي، في دراسة ميدانية مثيرة توصل من خلالها، حسبّه، إلى أن أطفالنا يستخدمون في ألعابهم نغمات قليلة بعينها، وأنها متطابقة في ألقانها في جميع القارّات والحضارات « بل وفي أية بقعة من العالم يوجد بها أطفال يتهاوشو، لحنياً، الأمر الذي يدعو للاعتقاد بأننا نمثل هنا بإزاء حالة واضحة لواقعة كونية تتميز بشقيها اللغوي والموسيقي، ويهيب بنا أن نتوفر على تعليل « لم هذه الدرجات بالذات؟ »... خاصة وأننا معشر الموسيقيين نملك ميزة فريدة تضعنا بموقع يفضل علماء اللغة الذين لا يَنُونُ يرددون سؤالهم « لِمَ هذه الأصوات بالذات في أحاديث البشر؟ » طارحين فرضيات بالغة التعقيد لا تزال قيد الاختبار فضلاً عن كونها محلّ جدل دائم ينطوي إمّا على التأييد أو الإنكار، أقول إن الحظّ حالفنا نحن الموسيقيين حين جعل بحوزتنا واقعة كونية ثابتة ومقرّرة سلفاً نطلق عليها اسم الهارمونية⁽²⁾ أي تناغمي HARMONIQUE.

ويردف الباحث قوله: إننا إذا ما سلّمنا بهذا المفهوم للطبيعة الموسيقية كلغة انعكاسية METALANGAGE أو ما ورائية محاولين الربط بين المفهوم الموسيقي وبحثنا في علم اللغة التحويلي الذي نادى به شومسكي، فإننا سنقف على فرضية تطرح نفسها: « ألا يُتصوّر وجود قواعد كونية تحكم المجاز الموسيقي؟ لقد أوضحنا في السابق أن القواعد كلها تتطور على مبادئ متماثلة في جوهرها، وأن العموميات الأساسية تسفر عن بنى عميقة موحدة الأصول تكمن في

1 - نفسه، ص: 147.

2 - نفسه، ص: 151.

باطن اللغات المتعددة، وأنه عن طريق العمليات التحويلية يتم دفع هذه البنى إلى سطح اللغة العادية ثم بواسطة فقرة مجازية تتحول البنى السطحية إلى شعر؟» (1).

وسواء ما طرحه ليونارد برنشتاين من طروحات تعدّ جديدة بالنسبة للغة الموسيقية وصلتها بالأصل المشترك للسان البشري، حقيقة علمية أم دراسات لا تخلو من تخمينات تعسفية، قد يقبلها عالم الموسيقى، ويردّها عالم اللغة، وقد يقف الاثنان منها وقوف منتظر لعقود آتية لتعزيز ما ذهب إليه برنشتاين أو دحضه، سواء أكان هذا الأمر أم ذاك، فإن ما أثاره الرجل يصبّ في اتجاه العولمة اللسانية الضمنية بين جميع الألسن.

6-6 كيف تواجه العولمة اللسانية؟

هذه الدراسات المتعددة الاختصاصات تراهن على أن العولمة موجودة بالطبع، ولها أرصدة بدائية وحضارية وفكرية يسحب منها الإنسان أشياء مشتركة في زمان ومكان لا سلطان له عليها، وهي ظواهر لا تتسم بأحادية إلا بقدر ما يصل إليه فكر المرء ويُبعدُ تصوّره الأقصى، وإلا فإنها متماثلة تماثلاً غير ذات محيط إلا المحيط الكلي الثابت المتغير.

ولعل الذين يدقون ناقوس الخطر بشأن زوال ألوف من اللغات واللهجات والتكلمات مع نهاية هذه الألفية على أبعد تقدير، لا يأخذون بعين الاعتبار إلا شره هذه العولمة التي لم يؤمن بها حتى الساعة إلا قلة ثقافية وسياسية واقتصادية مهيمنة على النظام العالمي الجديد بكل أشكاله وأبعاده، ومهمشة في الوقت نفسه غالبية الشعوب التي تقاوم من أجل البقاء كلياً لا ينقسم بكل مقوماته الخاصة والعامة.

وإذا كنا لا نؤمن بعولمة شرسة تتخذ من المحلية بساطاً تمتد عليه امتداداً آمناً بدون ثمن، فإننا في الوقت نفسه نجد أنفسنا أمام التطور المذهل للتكنولوجيا ووسائل الاتصال مورّطين، ولو بشكل غير مباشر، في هذه العولمة المسيّسة والموجّهة توجيهاً لجعل الغنيّ أكثر غنى، والفقير أشد فقراً، والقوي أزيد قوة، والضعيف أقل سيادة،... ولإباحة المتقدم تكنولوجياً لنفسه ما لا يبيح به لغيره من الأمم والشعوب، وكأنّ هذا المستبد مندوب عن قوة خارقة لا يعلمها إلا هو ومن في فلكه.

إننا لا نقبل عولمة لسانية على حساب محو وسحق لغاتنا المحلية والإقليمية بما في ذلك الشفهية منها، لأنها تمثل عنصراً تاريخياً، ومدّاً روحياً لهويتنا، وتشكل جسراً برزخياً بيننا وبين من تقدّمونا، وكل محاولة لتحطيم هذا الجسر الواصل بين هويتنا الواحدة زمنياً وتزامنياً، لا تعني إلا إرضاخنا رغم أنوفنا إلى هذه العولمة غير المتكافئة.

وإذا، فوجودنا هكذا وسط عومة ظالمة متوحشة، يجب أن يكون لنا منعة وقوة وتحصيناً، لا إقبالاً جارفاً عليها، وإذا لم يكن بدّ مما ليس منه بدّ، فلا أقل من أن نقاوم بما نملك من ثقافة نلبسها مثلما لبسها أسلافنا دون تحجر، لكن بتبصّر وحيلة إزاء كل ما يصطدم بها من ثقافات كونية آتية خصوصاً من الشمال.

نحن لا نستطيع أن نعيش بهذه العومة المزيفة المنصوبة لنا نحن الضعفاء المتخلفين إلى إشعار آخر، شرّاً من أشراكها المعسولة ظاهرياً في إعلامها وإنتاجها، المسمومة باطنياً في حقائقها التي تزدري بها الشعوب وتستغفلها، لكن ما السبيل إلى ولوجها بوجه شاحب أو تجنبها بأنفة كاذبة؟ «إن ما يبدو منطقياً وظاهراً أن وسائل الاتصال والمواصلات المعاصرة تتجه بسرعة نحو تقليص المسافات، وبالتالي التقليل من أهمية الجغرافيا، ومن المنطقي أن يؤدي إلغاء الجغرافيا إلى التقليل من شأن التاريخ، لكن هذه مجرد افتراضات تبقى مرتبهة لتحرير الحاضر نفسه من الظلم الاجتماعي داخل كل بلد، ومن الهيمنة على الصعيد العالمي»⁽¹⁾.

لا أريد هنا أن أثير قضايا عومية عامة، وهذا موضوع شائك آخر، له ميدانه، ورجالاته، كل ما أحاول أن أطرحه لا يخرج عن اللغة العربية ورُهن العومة سواء رضينا بها واقعاً قائماً مفروضاً من الخارج أم انغماساً انهزامياً فيها، إذا كنا لا نملك نحن العرب إلا الخنوع المخزي لكل مظهر من مظاهر هذه العومة الزائفة، ومنها الإقبال على اللغات الأجنبية وتدريسها لفلذات أكبادنا ابتداء من أول سنة تربوية مساواة لها باللغة العربية التي لا يبرح المحسوبون عليها تاريخياً مترددين تردّد من كان يُبشّر بالأثنى، فتراهم متوارين من أصحاب اللغات الأخرى أم يتكلمون بها ويستعملونها على هُونٍ أم يستعملون أو يتمنّون أن يستعملوا لغة غيرها «ألا ساء ما يحكمون».

إن أمة تفكر تفكيراً يقترب من هذا ليست جديدة بالبقاء على ماهي عليه، ولنا عبرة في شعوب تعاطت لغات أجنبية أو رسمت لغتها بغير الرسم العربي الذي كان بحوزتها، غير أن ما تعاطته من لغات غير لغاتها أو رسم غير الرسم العربي لم يشفع لها، ولا حولها من دولة متخلفة إلى دولة متقدمة، بل هي الآن ليست أحسن حالاً من دول تمسكت بكتابة لغتها بالرسم العربي.

إن الرضوخ لعومة في شكل استعمار ثقافي قديم في ثوب جديد يكون أكثر انقياداً لها كلما استهّنا بمقدساتنا التي تعدّ اللغة تاجاً مرصّعا لها، وكلّما زدنا تنازلاً عن أي مقوم من مقوماتنا:

من يَهْنِ يَسْهَلِ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لِحَرْحِ بِمَيِّتٍ إِيلَامُ

1 - حميد قهوي، المستقبل العربي، عدد 349، عام 2008، ص: 55.

6-7 لا عولمة بدون امتطاء المحلية :

إن عولمتنا هي محلّيتنا، قريتنا الصغيرة التي ينبغي أن نصنع منها مدينة كبيرة، ومدنيّة عالمية بثقافتها وعلومها وأصالتها، يجب أن نتخذ من قريتنا بوابة لعولمة لا مفرّ منها، ندخلها بلغتنا حتى لا ننصره فيها انصرهار غير قليل من الشعوب والأقليات التي غدت في خبر كان . كل مثقف عربي يشعر بهاجس حاضره، وغموض مستقبله يعلم يقيناً أنّ اللغة العربية تعيش أزمة مصطنعة لم يقصد أحد من أبناء جلدتها الإساءة لها، ولكن هكذا، وجدت اللغة العربية نفسها مع مطلع الألفية الثالثة تشكو حالها، وهي تُغزى في عقر دارها من لغات أجنبية كانت إلى عهد قريب تنهل من قاموسها وثقافتها .

إننا على وعي تامّ بأنّ الدرس اللغوي الحديث « لم يعد يسمح لباحث في حقل اللغة أن يعجب إعجاباً مفرطاً بلغة من اللغات، حتى ولو كان الشعور الداخلي ينمّ بعكس ذلك، ما دام هذا الإعجاب لا يزيد في قيمة لغة أو ينقص منها شيئاً، وما دامت كل اللغات الإنسانية متشاكلة في قدرتها البنيوية آلياً لأن تكون رهن إشارة مجتمعها المتواصل بها، إلا أنه بالمقابل ينبغي ألاّ نتخذ هذا التصرّف ذريعة لقلب ظهر المجن لإنجازات كل ما له صلة بالماضي وطبيّ تراثه كطيّ السجلّ للكتاب، لأنه يستحيل لجيل لاحق أن يبتكر لغة خاصة بعصره ابتكاراً مختلفاً كلياً عمّا تقدّمه من إنجازات رائده، ماعداً بعض المصطلحات أو الرموز الإشارية الجافّة التي ستلحق في يوم من الأيام برموز اللغة الطبيعية أي حين تنسى كونها حدثاً أو تاريخاً، وحين يتحوّل الشعور بها عبر أجيال وأزمنة إلى اللاشعور والأجيال» (1) .

وإذا كانت عربية اليوم تُرى من محدثين عرب وأجانب تعدم القدرة على مواكبة عصره بفعل ما جدّ من حقول دلالية متنوعة في المواصلات والذرة والعلوم والتجارة والاقتصاد... ولا تستطيع أن تساير يومها، فضلاً عن غدها إلا بترجمة هذه الكلمات القاموسية الجديدة إليها وهضمها، فإن ثمت مرضاً أو وهماً آخر يحاط بها يكمن خاصة في تلك الهالات العاطفية الجامحة، الأمر الذي أضفى عليها أحياناً صراعاً داخلياً تحول إلى منافع ومنتقد، قد يكون نابغاً من رؤية داخلية متبصرة بعواقب النتائج، أو صادراً من نفحات شعوبية ضيقة أكل عليها الدهر وشرب .

سبق للعربية، كما أشرنا، أن نهضت في حقبة تاريخية طويلة بمهمتها اللسانية والحضارية والإنسانية، يوم كانت سائدة خلال عولمتها القروسطية التي لم تنفد غرائبها، وما غدت به لغات بمئات من المصطلحات الثقافية والفنية والتجارية والعلمية... لا تزال مستعملة فيها حتى يومنا هذا .

1 - في رحاب اللغة العربية، ص: 41 .

وهذه الإشارة التاريخية للعربية لا تقودنا إلى التبجج بها، بل مجرد التفكير في إعجاب بها، أو مدح لها، يضرها أكثر مما ينفعها، ونحن نعلم أن عربيتنا الحديثة فقيرة فقرا مدقعا في مصطلحاتها الحديثة المستعملة عالميا في لغات أخرى، ولكن الذي يتحمل وزر هذا الانعدام الغيابات الوظيفية لغياب استعمالها من أبنائها في مجالات حيوية كعالم الإعلام الآلي والاتصال والمعمل والجامعة، ...

6-8 مشكل العربية داخلي لا عولمي :

إن العربية الراهنة تعيش وضعاً نظرياً لا تنافس فيه من اللغات الأخرى، إذ من منّا يجروء على إنكار الجهود المضنية التي بذلت من مجامع، وهيئات في سبيل ترقيتها، لكن وقوفنا على بعض هذه الإصدارات ذات الجوانب التقنية والعلمية بين لنا أن جلّها معرّب أو منحوت نحتاً غير سليم أو مترجم ترجمة بعيدة عما يقابله في اللغة الهدف أو الأصل، وقل ما تعثر على مصطلح مشتق من الوعاء الأصل للغة العربية.

ما من شك في أن لغتنا العربية تزر بألوف من الكلمات المشحونة بدلالات تقارب غير قليل ما يبتكر من مصنوعات، ولكن الإشكال الذي تعيشه العربية لا يكمن في انعدام مصطلح أو اختلافه فيها بل في عدم استعماله البتة، إذ لا أحد من المجمعين والأكاديميين العرب ينكر أن ما يستعمل لا يشكل إلا نسبة مضحكة مما يؤلّد ويقترح ويُقرّر في هذا المجمع أو ذاك نتيجة طبيعية لغياب إرادة سياسية عربية قوية لتبني هذه اللغة لغة علم وبحث وتعامل شامل ومعاملة بالمثل مع الأجانب.

لا تفرض لغة سلطانها إلا باستعمالها، وليس بالتباهي بجمالها وثرائها، وليست هناك لغة قديمة ولا حديثة محصنة تحصينا شاملاً من أن تدخلها كلمات من غيرها، فاللغات، وإن تفاوتت في طاقاتها البعيدة والقريبة، متساوية بما في ذلك ما يعرف باللغات الشفهية البدائية. إننا لا نخشى على اللغة العربية خطراً يهددها من عولمة خارجية بقدر ما نخاف عليها من تردّد يحيط بها ويتخللها من محلية داخلية، أي اللغة العربية راهناً مهددة من الداخل أكثر مما هي مستهدفة من الخارج، تراها تحتضر أمامك بقلوب دامعة، ولا أحد من أهل الحل والعقد يحرك ساكناً لحمايتها وزجر المتسببين في تحطيمها بالصوت والصورة وعلى المباشر.

انظر إلى هذه الفضائيات العربية الفنية والغنائية والثقافية الخليجية و... ماذا يحدث فيها؟ التفت إلى برامج رياضية ودينية وثقافية وتعليمية بأية لغة تُبلّغ وتُقدّم؟ استمع إلى سفير عربي بأية لغة يتكلم؟ تفحص جرائد يومية لتقف على عشرات الأخطاء ذات المستوى الابتدائي، استمع إلى إذاعتك وما يجري فيها من حوارات ومقابلات، أنصت إلى مسؤول

سام يمثل سيادة في دولتك بأية لغة هجينة يصرّح، اقرأ هذه البلاغات الإشهارية أو استمع إليها بأية عبارات وتراكيب تُتلى وتذاع،...

أقولها وأصرّح بها، والزمن خير حاكم بيننا، إني لا أخاف على اللغة العربية عولمة أيّا كان شرهها وبطشها، بقدر ما أخشى عليها أن تُؤتَى من داخلها تهاوؤاً وإهمالاً من بني جلدتها، ومن ثم لا بد من ميثاق عربي موحد يحمي العربية في فضائها المحلي والإقليمي على مستوى الوطن العربي، على أن يكون هذا الميثاق ملزماً له هيئة من ساسة وخبراء تلحق بجامعة الدول العربية، هدفها متابعة وحماية استعمال اللغة العربية عربياً أولاً ودولياً ثانياً.

وحتى لا تتعدّد الفتاوى اللغوية التي لا يُطبّق منها في النهاية فتوى واحدة، ماذا لو اجتزأ العرب بمجمع لغوي عربي مركزي واحد تتفرّع عنه مجامع لغوية محلية من جهة يتغذى منها المجمع اللغوي المركزي، ومن جهة أخرى يشرف علمياً على المجامع الفرعية وينسّق بينها؟ وكي يكون المجمع المركزي مدعوماً بصلاحيّة أوسع، فإنه يستمد شرعيته من «الميثاق العربي لحماية اللغة العربية وترقيتها» التابع سلطة للأمين العام لجامعة الدول العربية.

مكتبة البحث :

1 - المراجع باللغة العربية :

- 1 - الأصوات والإشارات، أ. كندراتوف، تر: شوقي جلال - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1972 .
- 2 - تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، فلاديمير ويج بارتولد، تر: حمزة طاهر، ط: 4 / 1966، دار المعارف (مصر) .
- 3 - تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، تر: نبيه أمين فارس منير البعلبكي، ط: 3 / 1961 دار العلم للملايين بيروت .
- 4 - التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، عبد الجليل مرتاض، ط، 3 / 2005 : دار هومة (الجزائر) .
- 5 - تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي، حسن علي حلاق، ط، 2 / 1986 : دار الكتاب اللبناني .
- 6 - تطور النقود العربية الإسلامية، محمد باقر الحسيني، ط1 / 1966 : دار الجاحظ بغداد .
- 7 - الحضارة العربية في إسبانية، ليفي بروفيتسال، تر: الطاهر أحمد مكي، ط، 2 / 1985 : دار المعارف (مصر) .
- 8 - العرب قبل الإسلام، جرجي زيدان، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت .
- 9 - غرائب اللغة العربية، رفائيل نخلة اليسوعي، ط، 2 / 1960 : المكتبة الكاثوليكية، بيروت .
- 10 - في رحاب اللغة العربية، عبد الجليل مرتاض، ط، 2 / 2007 : ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر) .
- 11 - فقه اللغة صبحي الصالح، ط، 3 / 1968 : دار العلم بيروت .
- 12 - فقه اللغة المقارن، إبراهيم السامرائي، ط، 1968 : دار العلم للملايين بيروت .
- 13 - الفوارق النحوية بين اللهجات العربية الفصيحة (رسالة ماجستير 1982 جامعة الجزائر) عبد الجليل مرتاض .
- 14 - محاضرات في الألسنية العامة ف. دي سوسور تر: يوسف غازي ومجيد النصر، ط: 1984، دار نعمان للثقافة بيروت .
- 15 - المزهر، السيوطي، تخ: محمد أحمد جاد المولى، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة .
- 16 - مقدمة الصحاح، أحمد عبد الغفور عطار، ط، 3 / 1984 : دار العلم للملايين بيروت .
- 17 - مولد اللغة، أحمد رضا، ط، 1956 : دار مكتبة الحياة بيروت .

2 - المراجع باللغة الأجنبية :

- 1- Comprendre la linguistique, BERNARD POTTIER, MARABOUT, Paris, 1975.
- 2- Cours de linguistique générale, F. de SAUSSURE ENAG/ Edition 1990 Alger.
- 3- Dictionnaire de didactique des langues, R. GALISSON/ D. COSTE-HACHETTE, Paris, 1976.
- 4- Dictionnaire de la linguistique, G. MOUNIN presses universitaires de France, Paris, 1974.
- 5- Dictionnaire de la linguistique, J. DUBOIS et autres LIBRAIRIE LAROUSSE, Paris.
- 6- ESSAIS de linguistique, R. JAKOBSON, les éditions de minuit, Paris, 1963.
- 7- Introduction à la méthodologie structurale de la linguistique, sous la direction de MARCEL de grève et FRANS VAN PASSEL, Editions LABOR, 1973. Bruxelles.
- 8- La linguistique (GUIDE ALPHABITIQUE) sons la direction d'André MARTINET, Edition DENÖEL France.
- 9- Les voies du langage, J. COSNIER et autres BORDAS, Paris, 1982.
- 10- Pour comprendre la linguistique, MARINA YAGUELLO, Editions du SEUIL, 1981.
- 11- Problèmes de linguistique générale, EMILE BENVENISTE, Editions GALLIMARD, 1986.

3 - الدوريات :

- 1 - عالم الفكر مجلد ، 27 عدد 01 : سنة 1998 .
- 2 - عالم الفكر مجلد ، 28 عدد : 02 سنة 1999 .
- 3 - مجلة فكر وفن ، العدد الرابع سنة 1964 يصدرها ألبيرت تايل. ALBERT THEILLE.
- 4 - مجلة « اللغة العربية » العدد التاسع عام 2003 المجلس الأعلى للغة العربية (الجزائر) .
- 5 - مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد 40 : ج 02 : سنة 1966
- 6 - المستقبل العربي ، عدد 349 : سنة 2008